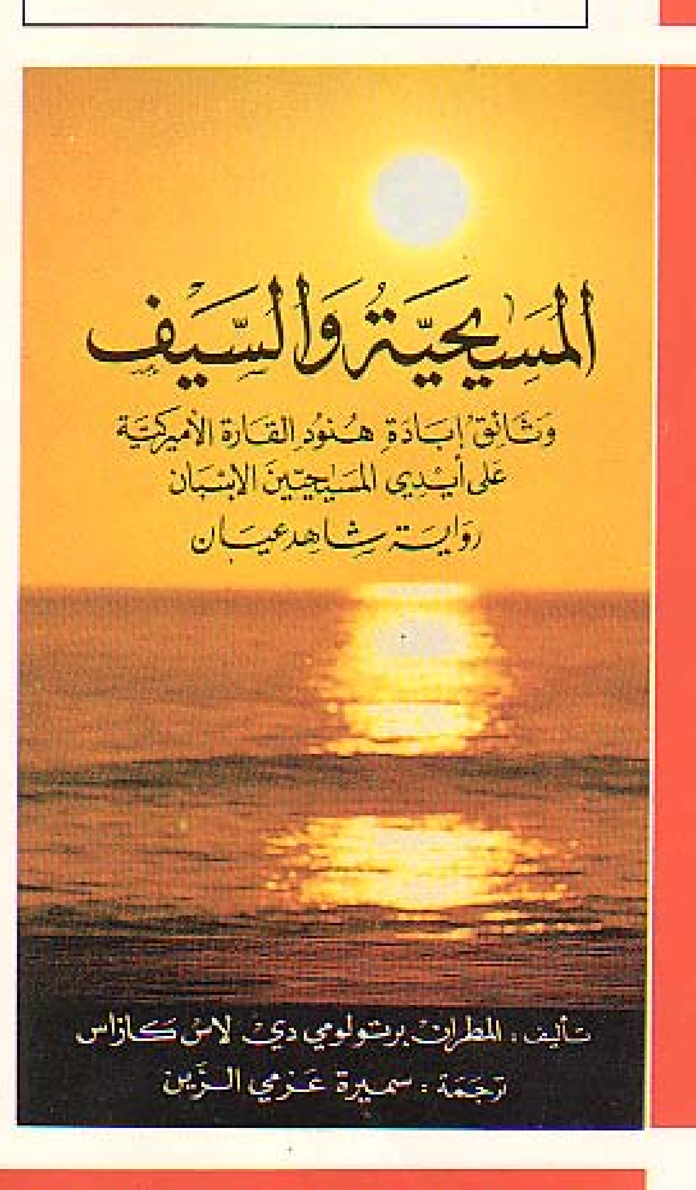
من أجل الحقيقة

(٢)



المسيحية والسيف

وثائق إبادة هنود القارة الأميركية على أيدي المسيحيين الإسبان رواية شاهد عيان

تأليف: المطران برتولومي دي لاس كازاس
ترجمة: سميرة عزمي الزين

منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية

المسيحية والسيف

من أجل الحقيقة (٢)

المسيحيّة والسّيف

وثائق إبادة هنود القارة الأميركيّة على أيدي المسيحيّين الإسبان

رواية شاهد عيان

تأليف: المطران برتولومي دي لاس كازاس

ترجمة: سميرة عزمي الزين

منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية

مقدِّمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول المؤرخ الفرنسي الشهير « مارسيل باتييون » أن مؤلف كتابنا « برتولومي دي لاس كازاس » أهم شخصية في تاريخ القارة الأميركية بعد مكتشفها « كريستوف كولومبوس » ، وأنه ربما كان الشخصية التاريخية الوحيدة التي تستأهل الاهتمام في عصر اجتياح المسيحيين الإسبان لهذه البلاد .

لولا هذا المطران الكاهن الثائر على مسيحية عصره وما ارتكبته من فظائع ومذابح في القارة الأميركية لضاع جزءٌ كبير من تاريخ البشرية . فإذا كان كولومبوس قد اكتشف لنا القارة ، فإن برتولومي هو الشاهد الوحيد الباقي على أنه كانت في هذه القارة عشرات الملايين من البشر الذين أفناهم الغزاة بوحشية لا يستطيع أن يقف أمامها إلا مستنكراً لها ، شاكاً في إنسانية البشر الذين ارتكبوها ، متوجساً خائفاً من تكرار بعض مشاهدها في عالم صارت فيه السكين أبلغ الواعظين ، وأتقى الأتقياء وسلطان الحجج والبراهين .

وُلد « برتولومي دي لاس كازاس » عام ١٤٧٤ م في قشتالة الإسبانية ، من أسرة اشتهرت بالتجارة البحرية . وكان والده قد رافق « كولومبوس » في رحلته الثانية إلى العالم الجديد عام ١٤٩٣م، أي في

السنة التالية لسقوط غرناطة وسقوط الأقنعة عن وجه الملوك الإسبان والكنيسة الغربية . كذلك فقد عاد أبوه مع « كولومبوس » بصحبة عبد « هندي » ، فتعرّف « برتولومي » على هذا العبد القادم من بلاد الهند الجديدة . بذلك بدأت قصته مع بلاد الهند وأهلها وهو ما يزال صبياً في قشتالة يُشاهد ما يرتكبه الإسبان من فظائع بالمسلمين ، وما يريقونه من دمهم وإنسانيتهم قبل أنِ يراهم يسفكون دم الهنود وإنسانيتهم في العالم الجديد . لقد جرى الدَّمَيان بالخير اليقين أمام عيني هذا الراهب الثائر على أخلاق أمته ورجال كنيستها ، وبعثات تبشيرها : دم المسلمين ودم الهنود ، سكان القارة الأميركية .

وبعد أن أنهى لاس كازاس دراسة اللاهوت أبحر إلى جزيرة « سان دومينغو » (وكان يُطلق عليها في ذلك الزمان اسم الجزيرة الإسبانية) عام ١٥٠٢ . ثم عُيّن كاهناً في عام ١٥١٣ . وكان بذلك أول راهب إسباني يعين رسمياً في بلاد الهند الغربية التي اجتاحها الإسبان .

وكانت هذه البلاد قد سميت ببلاد الهند ، وسُمي أهلها بالهنود لأن « كريستوف كولومبوس » حين وصل إلى القارة الأميركية ، ظنها شبه الجزيرة الهندية ، ولم يصدق في البداية أنه قد اكتشف للعالم قارة جديدة . بذلك سميت تلك القارة ببلاد الهند ، وسُمي أهلها بالهنود ، أو ما يُعرف عند العامة بالهنود الحمر .

وكان ملك إسبانيا قد أقطعه مستعمرة عاش فيها ، وأعطاه سلطة مطلقة تضمن حق الحكم بالحياة والموت على أي هندي ، كما أقطع معظم الإسبان الغزاة تلك الأراضي التي لا يملكها ، ومنحهم تلك

الحقوق التي أدت إلى إفناء الملايين من الأبرياء .

وعاش « لاس كازاس » فترة في « سان دومينغو » ، ثم انتقل إلى كوبا . وما لبث أن قرف واشمأز من وحشية الغزاة بعد أن شاهد بعينيه المذابح الدموية التي ارتكبها المسيحيون في جزيرة كوبا ، ووصفها لنا وصفاً مذهلاً في كتابه الآخر « تاريخ الهنود » . وكانت نقطة التحول في حياة ذلك الراهب الذي صار ملعوناً من أبناء أمته الاسبان ومكروهاً من كنيسته واخوانه الرهبان . أما الملوك الإسبان فكانوا يمعنون في غيهم كلما أمعن في النصح لهم ، وأما اخوانه الرهبان فكانوا كما وصفهم أحد الزعماء الهنود لا يعبدون إلا الذهب . ولقد وصفهم « لاس كازاس » بقوله :

« كانوا يسمون المجازر عقاباً وتأديباً لبسط الهيبة وترويع الناس . كانت هذه سياسة الإجتياح المسيحي : أول ما يفعلونه عندما يدخلون قرية أو مدينة هو ارتكاب مجزرة مخيفة فيها . . مجزرة ترتجف منها أوصال هذه النعاج المرهفة » .

لقد تعرى « لاس كازاس » من كل شيء . ولم يبق منه إلا الإنسان . فما رأته عيناه لم يره أحد من العالمين . كان الإسبان الذين معه ، رهباناً وطغاة ، لا يرون في دم قتلاهم إلا الذهب الذي يسرقونه . أما « لاس كازاس » فلم يبق له من إسبانيته إلا الخجل والعار ومن مسيحيته إلا الخيبة والمرارة . وكان في شهادته التاريخية النادرة على إبادة سكان القارة الأميركية وحيداً فريداً . كان إنساناً ، لا إسبانياً ولا مسيحياً . ومع ذلك فإن أحداً لا يستطيع أن يتهمه في دمه الإسباني ، أو في دينه المسيحي .

وهـذا أعظم مـا في شهادة « لاس كـازاس » على وحشيـة قومـه المسيحيين .

كـان يتحدث عن الإسبان ويقصد المسيحيـين ، ويتحـدث عن المسيحيين ويقصد الإسبان . وكان يشكو ويتألم من القتلة الطغاة ومن التبشير والمبشرين . وإنه كثـيراً ما كـان يصفـ لك القـاتل والمبشر في مشهد واحد فـلا تعرف ممن تحـزن : أمن مشهد القـاتل وهـو يذبـح ضحيته أو يحرقها أو يطعمها للكلاب ، أم من مشهد المبشر الذي تراه خائفاً من أن تلفظ الضحية أنفاسهـا قبل أن يتكـرم عليها بـالعماد ، فيركض إليها لاهثاً يجرجر أذيال جبّته وغلاظته وثقل دمه لينصّرها بعد أن نضج جسدها بالنار أو اغتسلت بدمها ، أو التهمت الكلاب نصف أعضائها وأحشائها .

ونقل إلينا صوراً ساخـرة عن طريقـة التبشير حـين كانت الحملة تصل إلى المدن والقرى الهندية بعد منتصف الليل ، وكانت تعلن على الهنود باللغة الإسبانية التي لا يفهمها أحد :

« يا سكان القرية (أو المدينة) إننا نعلمكم بوجود آله ، ووجود « بابا » ووجود ملك قشتالـة سيد هـذه الأراضي ، فاخـرجوا واعلنـوا الطاعة ، وإلا فإننا سنحاربكم ونقتلكم » .

وكان الفجر ينبلج عن حمّام الدم وأفق الضحايا البريئة . « كانوا ينصبون المشانق في مجموعات. كل مجموعة ثلاثة عشر مشنوقـاً ، من أجل تكريم وتبجيل السيد المسيح وحوارييه الإثني عشر » ! وكما قـال لاس كازاس عن الإسبان : « لقد قتل المسيحيـون كل هـذه الأنفس البريئة ، وفتكـوا كل ذلـك الفتك بـاسم الدين . . وكم من جـرائم

ارتكبوها باسم التبشير » . . « لقد ظل الإسبان طوال هذه السنين يكتبون ويزعمون أن الله أرسلهم لفتح هذه البلاد التي كانت آمنة مطمئنة ، وأن الله هو الذي نصرهم على هذه الأمم . كانوا يحمدون الله في صلواتهم ويشكرونه لأنه أعطاهم كل هذه الخيرات ، ولأنهم قاموا بكل هذا الطغيان » .

ولم يكن « لاس كازاس » مبالغاً في وصفه ، بل كان يعتذر من عجزه عن وصف كل ما جرى . ويعتقد أنه ليس هنالك من يستطيع أن يسرد ما حصل فعلاً . إن العقل الجسور والخيال الجموح ليعجزان عن الفهم والإحاطة ، فإبادة عشرات الملايين من البشر في فترة لا تتجاوز الخمسين سنة هول لم تأتِ به كوارث الطبيعة . ثم إن كوارث الطبيعة تقتل بطريقة واحدة . أما المسيحيون الإسبان فكانوا يتفننون ويبتدعون ويتسلّون بعذاب البشر وقتلهم . كانوا يجرّون الرضيع من بين يدي أمه ويلوّحون به في الهواء ، ثم يخبطون رأسه بالصخر أو بجذوع الشجر ، أو يقذفون به إلى أبعد ما يستطيعون . وإذا جاعت كلابهم قطعوا لها أطراف أول طفل هندي يلقونه ، ورموه إلى أشداقها ، ثم اتبعوها بباقي الجسد . وإن المرء لا يستطيع أن يصدق أن الإسبان المسيحيين الذين جاؤوا إلى العالم الجديد ليبشروا بدين « المحبة » كما يزعمون كانوا يقتلون الطفل ويشوونه من أجل أن يأكلوا لحم كفيه وقدميه قائلين : إنها أشهى لحم الإنسان .

لم يكونوا يقتلون بل يتلذذون بالقتل ، ولم يكونوا يعذبون ويبطشون ، بل كانوا يستمتعون ويطربون لمشهد العذاب والبطش . ولقد اخترعوا في فن التعذيب ما يضاهي اختراعاتهم في فنون القتل . وسأترك للقارىء أن يعرف ذلك من شهادات المؤلف التي تركها لنا في

هـذا الكتاب النـادر . إنها شهادات هـزت أعماق الكثـيرين من أبناء أوروبـا وأميركـا حين نُشرت ، وتـركتهم يعيـدون النـظر في تـاريخهم وأخلاقهم وديانتهم المسيحيـة ، شهادات عـلى إبادة أمـة من عشرات الملايين من البشر ، أو عـلى ما يسميـه « لاس كازاس » بـدمار بـلاد الهند .

كانت القرارات البابوية هي التي منحت ملوك اسبانيا حق امتلاك الأراضي مـا وراء البحار . وكـان هذا الحق يعني ، كـما تحـدث عنـه مؤلف كتابنا : نهب البلاد وإفناء العبـاد . وكانت القـرارات البابـوية تقضي بـأن يكـون التبشـير أولاً ، والاستعـمار ثـانيـاً ، أي أن يكـون للرهبان أولوية على العسكر الغزاة ، وأن تكـون الغنائم للكنيسـة كما الدولة . واكتشف الرهبان أن العسكر قد تولوا أمـر التبشير بـأنفسهم وعلى طريقتهم ، وأن ذهب العالم الجديد قد « طار » من يد الكنيسة . ولم يبقَ أمام الرهبان إلا الشكوى . ويصف لنا « لاس كازاس » بعض الرهبان يلهثون وراء الذهب ، ويحدثنا عن رئيس المطارنة الـذي كان يرسل خدمه ليأتوه بحصته منه . لقد كانوا جميعاً متفقـين على سرقـة البلاد ، عسكراً ورهباناً . هؤلاء يـريدون الـذهب بتعذيب الأجسـاد وقتلهـا ، وأولئك يـريدونـه بتعذيب الأرواح وقتلهـا . وكانـوا جميعـاً يشهرون سيف المسيح ، والمسيح عليه السلام براء منهم ومن أعمالهم وأخلاقهم .

رأى « لاس كازاس » كل ذلك بعينيه ، وأرسل الرسائل المتعددة إلى ملك إسبـانيا يستعـطفه ويسـترحمه ويـطالبه بـوقف عـذاب هؤلاء البشر . وكانت آذان الملك الإسباني لا تسمع إلا رنين الذهب . ولماذا يشفق الملك على بشر تفصله عنهم آلاف الأميال من بحر الظلمات ما

دامت جرائم عسكره ورهبانه في داخل إسبانيا لا تقل فظاعة عن جرائم عسكره ورهبانه في العالم الجديد ؟ كان الإسبان ، باسم الدين المسيحي الذي يبرأ منه المسيح عليه السلام ، يسفكون دم الأندلسيين الذين ألقوا سلاحهم ، وتجردوا من وسائل الدفاع عن حياتهم وحرماتهم . وكان تنكيلهم بهم لا يقل وحشية عن تنكيلهم بهنود العالم الجديد . لقد ظلوا يسومون المسلمين أنواع التعذيب والتنكيل والقهر والفتك طوال مائة سنة فلم يبقَ من الملايين الثلاثين مسلم واحد ، كما ساموا الهنود تعذيباً وفتكاً واستأصلوهم من الوجود .

كانت محاكم التفتيش التي تطارد المسلمين وتفتك بهم ، ورجال التبشير الذين يطاردون الهنود ويفتكون بهم من طينة واحدة تدل على ما وصلت إليه قلوب أولئك المزعومين على المسيح عليه السلام من غلظة وقسوة ووحشية .

وواضح من وصف المؤلف أن الهنود الذين أبادهم الاسبان كانوا من أكثر شعوب ذلك الزمان براءة وطيبة ، وقد كان هذا مقتلهم . فكلما سمعوا بوصول الاسبان إليهم خرجوا إليهم مرحبين يحملون إليهم الهدايا . وكان الإسبان دائماً يأخذون منهم الهدايا ويقتلونهم على الفور ، أو يدعونهم إلى سفنهم ليبحروا بهم ويبيعوهم عبيداً . وكان هذا « السيناريو » يتكرر في معظم القرى والمدن الهندية . . ومع ذلك ظل الهنود لا يصدقون أن بإمكان هؤلاء أن يقتلوهم ، ولم يعرفوا لماذا يقتلونهم . وقد قال عنهم « لاس كازاس » : « إن هذه الشعوب أسعد أهل الأرض ، وإن بلادهم أسلم بلاد الله وأكثرها طمأنينة . . . إنها شعوب رضية لا تعرف الشر ، طيبة بالغة الوفاء ، بل إنها أكثر الشعوب تواضعاً وصبراً ومسالمة وسكينة . إنها لا تعرف الضغينة ولا

الصخب ولا العنف والخصام . شعوب تجهل الحقد وسوء الطوية ، وتعف عن الثأر والانتقام . شعوب مرهفة ناحلة هزيلة لا تطيق أجسادها الرهق ، وسرعان ما يهلكها المرض . . . ولقد غشي الإسبان هذه الخراف الوديعة غشيان الذئاب والنمور والأسود الوحشية التي لم تجد طعاماً أياماً وأياماً . . » .

ألا ترى أنهم فتكوا بهم كما فتكوا بنا فأصابوهم وأصابونا في مقتل واحد . ألا ترى أن الحروب الصليبية لم تتوقف عن حملاتها المعلنة إلا بعد أن اكتشف الغربيون ما يطفىء عطشهم إلى الذهب والدم في القارة الأميركية . ألا ترى أن هذه الحملات لم تعد إلى بلادنا بصورتها الجديدة إلا يوم استنفد الغربيون أغراضهم من القارة الأميركية فجعلوها لهم أرضاً وتاريخاً وديناً ، كما كانوا يريدون لبلادنا أن تكون لهم أرضاً وتاريخاً وديناً . وما زالوا يريدون . وأنها سيرة تتكرر هنا وهناك . . سيرة البندقية والتوراة التي تروى هنا لأول مرة لقراء العربية فتسد فراغاً كبيراً حول أصل هذه الإبادات وأخلاق أهلها وجنسهم ودينهم .

في عام ١٥١٤ قرر « لاس كازاس » أن يضع قانوناً للإصلاح ، وأن يقنع ملك إسبانيا فرديناند العجوز بضرورة تنفيذه ، محاولاً التوفيق بين مصلحة الخزينة الإسبانية وبين إنقاذ الهنود من الإبادة ، غير أن فرديناند توفي وخلفه « شارل كانت » الذي لم يقبل بإعادة النظر في الإجتياح الاسباني ، بل إنه خطط لاستعمار ما تبقى من القارة ، وبعث بالقائد الشهير« كورتيس » لغزو المكسيك وبيزار والبيرو . وفي عام ١٥٢٠ أبحر « لاس كازاس » إلى منطقة كومانا على الساحل الفينزويللي ، وكان شاهداً على الحرق والقتل والدمار الذي ارتكبه

المسيحيون الإسبان في فنزويللا ، كما شاهد الهنود وهم يثورون لأول مرة على هذه المذابح والفظائع ، وكيف أن الأمبراطور الإسباني أرسل حملات تأديب تميزت بوحشيتها الشديدة ، وارتكبت مزيداً من المذابح . بل إن أتباع « لاس كازاس » من الرهبان اشتركوا فيها واستشروا .

وكان هذا الفشل المر منعطفاً حاسماً في حياة هذا الكاهن الثائر فتخلى عن كل أملاكه ، وأقلع عن التعاون مع الاسبان نهائياً ، وانصرف إلى الدراسة والبحث . وكتب رسالته الشهيرة إلى المجلس الإسباني عام ١٥٣١ م قائلاً فيها :

لقد قال السيد المسيح : « هأنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب » ، فلماذا يا سادتي ترسلون الذئاب الجائعة المتوحشة التي تذبح وتهلك النعاج ؟ .

وأحرز « لاس كازاس » شيئاً من النصر في عام ١٥٤٠ حين منحه حاكم غواتيمالا الإسباني منطقة « حراما » أوكل إليه أمر تحويلها إلى أرض سلام . . . غير أن موجَة التهديد والعدوان ثارت عليه في كل الامبراطورية الإسبانية فأخفقت التجربة ، لكنه لم ييأس ، بل توجه إلى مدريد وواجه الأمبراطور ، وأقنعه بوضع قوانين الإصلاح الداعية إلى إلغاء عبودية الهنود وإبادتهم ، وهي القوانين التي لم تنفذ أبداً ، ثم طويت في أدراج النسيان .

وعاد إلى المكسيك عام ١٥٤٤ ، ولم يبقَ فيها أكثر من عامين زهق فيهما من عنت المستعمرين الغزاة ومظالمهم . وحين طالب بتدخل القضاء ضحك منه القضاة وتخلوا عنه كما تخلى عنه أعضاء أسقفيته .

ثم تعرض للسباب والشتائم والإهانات من إسبانيا ومن البلاد المغزوة . . وكلها يجمع على أنه عدو لإسبانيا .

وكانت نهاية التجربة المرة التي عاد بعدها إلى إسبانيا ، وأمضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته في عزلة كاملة يؤلف ويرد على التهم التي توجه إليه .

وبعد ، فهذا هو الكتاب الثاني من سلسلة « من أجل الحقيقة » ، بعد كتاب « المسيح الدجال » للفيلسوف نيتشه . وإنه ليُنشر لأول مرة بالعربية لإضاءة هذا الجانب المظلم من الإجتياحات المسيحية .

إن أحداً لا يعلم كم عدد الهنود الذين أبادهم الغزاة الإسبان . ثمة من يقول إنهم مائتا مليون ، ومنهم من يقول إنهم أكثر . أما لاس كازاس فيعتقد أنهم مليار من البشر . ومهما كان الرقم فقد كانت تنبض بحياتهم قارة أكبر من أوروبا بسبعة عشر مرة ، وها قد صاروا الآن أثراً بعد عين .

الناشر

مقدمة المؤلف

من المطران برتولومي دي لاس كازاس
إلى سمو أمير بلاد إسبانيا المعظم مولانا دون فيليب

. . . إنني أريد أن أُحدثكم يا سمو مولاي عن الشرور والآثام ، وعن الدمار والخراب في هذه الممالك الكبيرة ، أقصد هذا العالم الجديد الشاسع المُسمى ببلاد الهنود [الحمر] التي وهبها الله لملوك قشتالة وأناطها بهم ليسوسوها ويصلحوا أمرها ويهدوا أهلها إلى المسيحية فينعموا عليها بأمل الدنيا والآخرة .

وإن المرء لا يستطيع أن يتخيل أبداً أن في قدرة البشر أن يقوموا بمثل هذا التخريب . لقد عشت في بلاد هذه الشعوب الهندية أكثر من خمسين عاماً وشاهدت بأم عيني ما ارتكبوه من فظاعات وجور . ولو أن سموكم علم بالنزر اليسير من هذه الفظائع لتوسل إلى جلالتها أن تمنع الطغاة من طغيانهم باسم الفتوحات . إن كل سماح باستمرار الفتوحات يعني سماحاً بتكرار الفظاعات . فما تلقاه الشعوب الهندية المسالمة المتواضعة المرهفة ليس إلا طغياناً وجوراً يدينهما كل قانون ، وضعياً كان أم إلّهياً . إنها أفعال مرذولة ملعونة ، ولهذا عزمت على أن أبرىء ساحتي من هذه الجريمة بأن لا أسكت عنها ، وأن أحدثكم عما جناه الطغاة وعما أزهقوه من أرواح وآذوه من أجساد . عزمت على أن أكتب عن النزر اليسير منها لأنني عاجز في الحقيقة عن أن أكتب عنها

كلها . ولقد أردت أن أوجز لأجعل أمر قراءتها يسيراً على سموكم .

وكان رئيس أساقفة طليطلة قد طلب مني رواية هذه الأحداث ، وقدمها إلى سموكم ، ولعلكم لم تطلعوا عليها ، أو لربما نسيتموها في غمرة مشاغلكم الملكية المتعددة ، أو أسفاركم الطويلة في البر والبحر .

ثمة استهتار وطيش يتعاظمان في أنفس هؤلاء الذين يسفكون كل هذه الدماء ، ويستأصلون هذه الأراضي الشاسعة من أهلها وأصحابها بقتل مليار من البشر ، وبنهب الكنوز التي لا تقدر بأثمان . إنهم يحتالون بأساليب مختلفة من أجل أن تسمحوا لهم بالمضي في الفتوح التي لا يمكن السماح بها من غير الاعتداء على حرمات الله ، واختراق القوانين الطبيعية ، ومن غير اقتراف الخطايا المنكرة التي تستأهل العذاب الشديد .

لهذا رأيت لزاماً عليَّ أن أُقدم لسموكم رواية شديدة الإيجاز لتاريخ طويل من الأذى والدمار . ولا بد من كتابة هذا التاريخ ذات يوم . إنني أتوسل إلى سموكم أن تقرأوا هذا الكتاب وأن تولوه بالعطف والرعاية اللتين تولونهما رعيتكم الوفية . وإنني أتمنى عليكم أن تسترحموا جلالتها وتقنعوها بوقف هذه الفتوح الشنيعة ، وذلك بعد أن تقرأوا هذه الرواية الموجزة وتصيروا على علم بوحشية الظلم المستفحش بهذه الكائنات البريئة التي نمثل بها ونقطعها إرباً إرباً من أجل الجشع والطمع ليس إلا . إنني أسترحمكم أن تقنعوا جلالتها بوقف الفتوحات والتخويف من استمرارها تخويفاً لا يجرؤ بعد ذلك أحد على طلب الإذن بها . إن ذلك يا مولاي المبجل أمر جلل لا بد منه إذا كنا نريد أن يوفق الله مملكة قشتالة ويسبغ عليها السعادة والرخاء . . آمين .

رواية موجزة جداً
لدمار بلاد الهند

اكتشفت بلاد الهنود [الحمر] سنة ١٤٠٢ ، ثم استوطنها الاسبان في السنة التي تلتها ، وتدفقت عليها جموع كبيرة منهم على مدى تسعة وأربعين عاماً . أما أول أرض دخلوها فهي التي تُسمى بالجزيرة الإسبانية السعيدة الواسعة التي يبلغ محيطها ستمائة فرسخ والتي تطوقها جزائر أخرى متعددة واسعة . ولقد رأيناها جميعاً مكتظة بالسكان من الهنود الحمر كأي أرضٍ أخرى مأهولة في العالم .

وكان أقرب مكان إلى اليابسة يبعد عن الجزيرة ٢٥٠ فرسخاً . ولهذه اليابسة عشرة آلاف فرسخ من الساحل المعروف . وفي كل يوم تُكتشف مساحة إضافية . كل هذه الأراضي التي تم اكتشافها حتى عام ١٥٤١ كانت تعج بالحياة والبشر كأنها خلايا النحل ، حتى ليخيل إلى المرء أن الله أحل فيها أكبر عدد ممكن من البشر .

خلق الله هذه الشعوب الغفيرة رضية لا تعرف الشر والرياء . إنها شعوب طيعة بالغة الوفاء لأسيادها الطبيعيين وللمسيحيين الذين تخدمهم ، بل إنها أكثر الشعوب تواضعاً وصبراً ومسالمة وسكينة . إنها

لا تعـرف الضغينة ولا الصخب و العنف والخصـام . شعوب تجهـل الحقد وسوء الطوية ، وتعف عن الثأر والإنتقام . شعوب مرهفة رقيقة الحاشية ناحلة هزيلة لا تطيق أجسادها الرهق ، وسرعـان ما يهلكها المرض مهما كان . إن أبناء أمرائنا ونبلائنا الذين ترعرعوا في ظل الرفاه والرخاء وخضرة الحياة أقوى عوداً منها ، بل أشد بأساً من فلاحيها . شعوب فقيرة لا تملك الوفر بل تعف عن متاع الدنيا . لهذا لا تعرف الكبر والجشع والطموح . وليس طعامها بأحسن أو أكثر أو أتعس من طعـام الرهبـان في الصحارى . وتـراهم عراة يمشـون لا يسترون إلا عوراتهم . ويغطون أجسادهم بغطاء من القطن . يفترشون الحصير ، وينامون في ما يشبه الشبكة المعلقة .

إن لهم ذهناً ثاقباً شديد الوضـوح . وهم أذكياء منفتحـون لكل عقيدة صالحة وتراهم يلحون على معرفة الشاردة والواردة . إن كثـيراً من الإسبان ـ غير الكهنة ـ يعترفون بأنهم لا يستطيعون أن ينكروا طيبة أنفسهم وحميـد خصالهم . ولـربما كـانت هذه الشعـوب أسعـد أهـل الأرض لو أنها عرفت الله .

لقد غشي الإسبان هذه الخراف الوديعة غشيـان الذئـاب والنمور والأسود الوحشية التي لم تجد طعامها أياماً وأياماً . ومنذ أربعين سنـة وهم يقطعون أوصالها ويقتلونها ويـروّعونها ، ومنـذ أربعين سنـة وهم يفتكون بها ويعذبونها ويبيدونها . كل يوم فظاعة جديدة غريبة مختلفة لم نسمـع ولم نقرأ عن مثلهـا من قبل . ولسـوف أتحدث عنهـا لاحقاً . كانت هذه الفظائع شديدة لم تبقِ في الجزيرة الإسبانية اليوم سوى مائتي هندي من أصل ثلاثة ملايين .

إن جزيرة كوبا التي تبلغ مساحتها ما يفصل روما عن « فاللادوليد » خاوية على عروشها لم يبق من أهلها ديّار . أما جزيرتا سان خوان وجامايكا الآمنتان المطمئنتان فجزيرتان سعيدتان كبيرتان ولكن أقفر من أهلة ملحوب . وهنالك ستون جزيرة مثلهما على تلك الحال . إن أبشع جزيرة فيها أكثر خصباً وأبهى جمالاً من حدائق ملك اشبيلية . كانت أسلم بلاد الله وأكثرها أمناً وطمأنينة وكان يسكنها نصف مليون من البشر لم يبق منهم اليوم أحد ، فقد أفنى الاسبان أهلها وهم يطردونهم إلى الجزيرة الإسبانية التي أُبيد سكانها . لقد جاب مركب إسباني وطاف على هذه الجزر ثلاثة أيام بحثاً عمن لعله نجا من أهلها بعد « الحصاد » ، فلم يعثر على غير أحد عشر ناجياً . وهنالك أكثر من ثلاثين جزيرة مجاورة لسان خوان كلها أقفرت وأُفني أهلها . . .

أما على اليابسة فإننا على يقين من أن رجالنا الإسبان قد اجتاحوا ونهبوا أراضي كانت عامرة بأهلها الطيبين فصارت اليوم صحراء . لقد نهبوا أكثر من عشر ممالك أكبر من كل إسبانيا وأراغون والبرتغال مجتمعة ، وتبلغ مساحتها ضعف ما بين اشبيلية والقدس ، أي أكثر من ألفي فرسخ . وطوال هذه السنوات الأربعين أُبيد أكثر من اثني عشر مليوناً من الرجال والنساء والأطفال ظلماً وعدواناً جراء طغيان المسيحيين وأعمالهم الجهنمية . هذا رقم مؤكد على الرغم من أنني أعتقد ، مطمئناً إلى اعتقادي ، أن عدد الضحايا يتجاوز خمسة عشر مليوناً .

إن الذين ذهبوا إلى هناك من أدعياء المسيحية أبادوا الشعوب الهندية الوادعة ومحوا ذكرها من وجه الأرض ، إما بالاجتياحات

الدموية المتوحشة ، وأما باستعباد من تبقى استعباداً فظاً غليظاً شنيعاً لم يشهد مثله البشر ولم تعرفه الدواب . أما من كان يحلم بالحرية أو يفكر فيها أو يحاول الخلاص من عذاباته كما يفعل ذلك كل إنسان فمصيره القتل . عدّ من ذلك إلى أنواع منوعة من الجور والطغيان الجهنمي والتخريب .

قتل المسيحيون كل هذه الأنفس البهيّة وفتكوا كل ذلك الفتك باسم الدين ليحصلوا على الذهب ويكتنزوا الثروات ويصلوا إلى مراكز أكبر من أشخاصهم . إن جشعهم وتطاول شهواتهم الجامحة أودى بهم إلى احتقار هذه الشعوب المتواضعة الحالمة الودودة ونهب ثروات هذه الأراضي الخصبة البهيجة . (إنني أقول الحقيقة لأنني شاهدتها بأم عيني) . كان المسيحيون ينظرون إلى الهنود الحمر لا كما ينظرون إلى الحيوانات (ويا ليتهم اعتبروهم حيوانات) بل أقل قدراً من الدواب وأحط شأناً من الزبل .

هكذا كانت حياة هؤلاء الناس وأرواحهم [في أعين الإسبان] ، ولهذا مات منهم العدد الغفير قبل أن يعرفوا حلاوة الإيمان ومن غير أن يتذوقوا القربان المقدس . ثمة حقيقة مؤكدة أجمع عليها الإسبان بطغاتهم ومجرميهم وهي أن الهنود في كل تلك البلاد لم يمسوا مسيحياً بسوء . وكان الهنود في البداية يظنون أن المسيحيين قد نزلوا عليهم من السماء . كان ذلك إلى أن عذبهم المسيحيون ونهبوهم وفظعوا بهم ونكبوهم مراراً وتكراراً .

عن الجزيرة الإسبانية

أسلفنا أن الجزيرة الإسبانية كانت أول بقعة اجتاحهـا المسيحيون وابتدأوا منها بالتخريب وحملة الفتـك الكبيرة بهـذه الشعوب . كـانت أول جزيرة عاثوا بها وأبادوا سكانها . في البدء سبوا النساء والأطفـال ليستخدموهم كما يشاؤون ، ثم راحوا يسرقون طعامهم فلم يكتفوا بما كان الهنود يقدمونه لهم عن رضا ونفس طيبة سخية . كان كل هندي يعطي ما وسعه العطاء برغم شح مورده وضيق ما بين يديه وما ينتجه بجهده المتواضع . فما كان يكفي ثلاث أسر هنـدية ، كـل أسرة من عشر أنفس ، ولمدة شهر ، يلتهمه المسيحي أو يفسده في يوم واحد . وحين رأى الهنود كـل هذا العنف والتفظيع بـدأوا يعرفـون أن هؤلاء الرجال لم ينزلوا من السماء ، وصار بعضهم يخبىء طعامه أو يهرب من هؤلاء البشر القساة ويختفي في الغابـات . كان المسيحيـون يطاردونهم ويختطفون أسياد القرى . وقـد بلغ بهم الطيش والـتراذل أن اغتصب قبطان مسيحي امرأة حاكم الجزيرة وامرأة أشهر نبلائها . آنذاك راح الهنود الحمر يبحثون عن وسائـل لطرد المسيحيـين ، وحملوا السلاح . ولكنه كان سلاحاً ضعيفاً غير هجومي ، بل كان أعجز عن المقـاومة والدفاع . لذلك كانت حروبهم أشبه بألعاب الصبيان .

أما المسيحيون فعاقبوهم بمذابح لم تُعرف في تاريخ الشعوب . كانوا يدخلون على القرى فلا يتركون طفلاً أو حاملاً أو امرأة تلد إلا ويبقرون بطونهم ويقطعون أوصالهم كما يقطعون الخراف في الحظيرة . وكانوا يراهنون على من يشق رجلاً بطعنة سكين ، أو يقطع رأسه أو يدلق أحشاءه بضربة سيف . كانوا ينتزعون الرضَّع من أمهاتهم ويمسكونهم من أقدامهم ويرطمون رؤوسهم بالصخور ، أو يلقون بهم في الأنهار ضاحكين ساخرين . وحين يسقط في الماء يقولون : « عجباً إنه يختلج » . كانوا يسفّدون الطفل وأمه بالسيف [كما تسفّد قطع اللحم بالسفّود] ، وينصبون مشانق طويلة ، ينظمونها مجموعة مجموعة ، كل مجموعة ثلاثة عشر مشنوقاً ، ثم يشعلون النار ويحرقونهم أحياء . وهناك من كان يربط الأجساد بالقش اليابس ويشعل فيها النار : هكذا أحرقوا الهنود الحمر وهم أحياء .

كانت فنون التعذيب لديهم أنواعاً منوعة . بعضهم كان يلتقط الأحياء فيقطع أيديهم قطعاً ناقصاً لتبدو كأنها معلقة بأجسادهم ، ثم يقول لهم : « هيا احملوا الرسائل » ، أي : هيا أذيعوا الخبر بين أولئك الذين هربوا إلى الغابات . أما أسياد الهنود ونبلاؤهم فكانوا يقتلون بأن تصنع لهم مشواة من القضبان يضعون فوقها المذراة ، ثم يربط هؤلاء المساكين بها ، وتوقد تحتهم نار هادئة من أجل أن يحتضروا ببطء وسط العذاب والألم والأنين .

ولقد شاهدت مرة أربعة من هؤلاء الأسياد فوق المشواة . وبما أنهم يصرخون صراخاً شديداً أزعج مفوض الشرطة الإسبانية الذي كان نائماً (أعرف اسمه ، بل أعرف أسرته في قشتالة) فقد وضعوا في حلوقهم قطعاً من الخشب أخرستهم ، ثم أضرموا النار الهادئة

تحتهم . رأيت ذلك بنفسي ، ورأيت فظائع ارتكبها المسيحيـون أبشع منهـا . أما الـذين هربـوا إلى الغابـات وذرى الجبال بعيـداً عن هذه الوحوش البشرية الضاريـة فقد روض لهم المسيحيـون كلابـاً سلوقية شرسة لحقت بهم ، وكانت كلما رأت واحداً منهم انقضت عليه ومزقته وافترسته كما تفترس الخنزير . وحين كان الهنود يقتلون مسيحياً دفاعاً عن أنفسهم كان المسيحيون يبيدون مائة منهم لأنهم يعتقدون أن حياة المسيحي بحياة مائة هندي أحمر .

عن الممالك
التي كانت في الجزيرة الإسبانية

كان في هذه الجزيرة ، قبل إفنائها ، خمس ممالك أساسية يحكمها خمسة ملوك أقوياء يخضع لهم الأسياد . وكان اسم المملكة الأولى « ماغوا » وتعني مملكة السهل الخصيب . وهي من أجمل ممالك العالم ، تمتد على ثمانين فرسخاً من بحر الجنوب إلى بحر الشمال ، ويبلغ عرضها خمسة فراسخ في بعض الأطراف وثمانية فراسخ أو عشرة في أطرافٍ أخرى . وتحيط بها من أطرافها سلاسل الجبال الشاهقة . إن فيها أكثر من ثلاثين ألف نهر ومسيل . ومعظم هذه الأنهار غني بالذهب الثمين . أما اسم ملكها فهو « غواريونر » . وقد كان له عدد من الأتباع والأسياد . بل إن سيداً واحداً من هؤلاء كان قادراً على أن يجند للملك ستة عشر ألف محارب . كان الملك لين العريكة خلوقاً مسالماً ، وكان وفياً لملوك قشتالة ، يأمر في كل عام واحداً من رعاياه الأغنياء أن يقدم جلجلاً ممتلئاً بالذهب لملوك قشتالة ، ثم اضطر بعد ذلك إلى جعله نصف جلجل ذلك لأن الهنود غير بارعين في استخراج الذهب . واقترح الملك أن يعوض عن ذلك بأن يزرع الأراضي الممتدة بين « ايزابيلا » و« سان دومينغو » وأن يقدم محاصيلها لملوك قشتالة . ولكن ذلك لم يرق للحاكم الإسباني الذي كان يفضل الذهب على

المحاصيل الزراعية . وبدلاً من شكر الملك بعث بقبطانه المسيحي الفحل إلى الملك فاغتصب امرأته . ولم يثأر الملك ، بل قرر أن يهرب وحيداً ويختفي في الغابات حيث مات بعيداً عن وطنه ومملكته .

أما المملكة الثانية فكانت تُسمى « مارين » وقد شيد فيها الإسبان مرفأ ملكياً . كانت « مارين » أكبر من مملكة البرتغال ، وكان شعبها آمناً سعيداً . وفي جبالها مناجم غنية بالنحاس والذهب . أما اسم ملكها فهو « غواكاناغاري » وكان يتبعه عدد من الأسياد الذين أعرف معظمهم . وحين وصل الأميرال العجوز إلى المملكة استقبله الملك بحفاوة بالغة ، هو وجميع المسيحيين الذين معه . وقد عاملهم بتسامح ونبل ولياقة لم يعرفوا لها مثيلاً في بلادهم بل من أهليهم . ثم حين علم الملك بأن السفينة التي كانت تحمل المؤونة قد غرقت أمدهم بكل حاجتهم ومبرتهم . غير أن هذا كله لم ينفع ، فقد أُهين هذا الملك الطيب ونهب ، وتاه في الغابات . أما أتباعه فمنهم من قُتل على يد المسيحيين ومنهم من أُتلفت أراضيه ومات من شدة العذاب .

اسم المملكة الثالثة « ماغوانا » ، وهي أرض خصبة غنية بقصب السكر ، واسم ملكها « كاونالا » . وهو ملك سخي بز الملوك الآخرين فيما أعطاه للمسيحيين ، وقدمه من خدمات ، وأحياه لهم من احتفالات ومهرجانات . وقد أخذه المسيحيون أسيراً إلى قشتالة ، غير أن السفينة غرقت في البحر به وبمن عليها من الإسبان المسيحيين . وحين علم أتباع الملك بذلك تمردوا وحملوا السلاح . وكان الإسبان أقوى بالطبع ، خاصة وأنهم كانوا يهجمون على أحصنتهم (يُعتبر الحصان أخبث سلاح ضد الهندي غير المعتاد عليه) . هكذا دمر المسيحيون هذه المملكة ونهبوها وأخلوها من نصف سكانها .

المملكة الرابعة هي مملكة « كزاراغوا » . وكانت أهم الممالك وأشبه ببلاط للجزيرة كلها . وقد كان لأهلها لغة مرهفة وعادات نبيلة، إذ بلغت التربية فيها مستوى راقياً حسناً . وهم ألطف أهل الجزيرة وأجملهم . ولهم ملك يدعى « بيهيكو » ، وشقيقة لهذا الملك اسمها « أناكاونا » . وللملك وشقيقته خدمات جلى قدماها لملوك قشتالة . وحين توفي الملك خلفته أخته على العرش . فعلم حاكم الجزيرة بذلك وجاء إلى بلاطها بصحبة ستين فارساً وأكثر من ثلاثمائة راجل . وكان هؤلاء قادرين وحدهم على تخريب الجزيرة والأرض اليابسة . ولجأ الحاكم إلى الحيلة فأدخل معظم رجال بلاط الملكة إلى منزل من قش وأضرم فيه النار وأحرقهم جميعاً وهم أحياء . أما الملكة فإنهم شنقوها تكريماً لخدماتها ، وأما الأطفال فكانوا يضمونهم بالرماح من ظهورهم أو يقعدونهم أرضاً ويقطعون سيقانهم .

وكان اسم المملكة الخامسة « هيغواي » ، وتحكمها ملكة عجوز شنقها الإسبان حين جاؤوا إليها وأحرقوا حاشية بلاطها وهم أحياء ، ولقد فظّعوا في التعذيب والفتك. ورأيت ذلك بعيني . إنني عاجز عن أن أصف كل ما شاهدت ، فلا الورق ولا الزمان بكافيين لسرد هذه الوحشية كلها . غير أنني أُريد هنا أن أعترف بثقة مطلقة بأن الهنود لم يكونوا مسؤولين عن هذه الحروب ، وإنهم كانوا أكثر طيبة ومسالمة من رهبان الأديرة ، فلم يرتكبوا ذنباً واحداً مع المسيحيين ، بل إنهم برغم كل فظاعات المسيحيين بهم لم يعرفوا الحقد أو الضغينة أو الانتقام . ولقد عاشرتهم فلم أعرف فيهم العنف ، بل إن عنفهم ، حين يظهر فيهم ، أشبه بعنف الأطفال في الثانية عشرة .

حين انتهت الحروب في هذه الجزيرة ، وتم إفناء رجالها ، لم يبق

فيهــا إلا بعض النســاء والأطفــال . حينـذاك قــرر المسيحيــون أن يقتسموهم بحجة أنهم سيهدونهم إلى الدين الكاثوليكي . بذلك ملك هؤلاء الأجلاف الأفظاظ رقاب هذه الأنفس البريئة ، فكانوا يسوقونهم إلى العمل طوال النهار ويمنعون عنهم الطعام ، بل كانوا يرمون إليهم الأعشاب بحجة أنهم ليسوا بشراً بل حيـوانات . وشيئـاً فشيئاً مـات الأطفال ، وماتت النساء في الحقول والمزارع . بذلك أُخليت الجزيـرة من أهلهـا في غضون سنـوات ، وحل محلهم هؤلاء الأفـظاظ الغلاظ الذين أصمّ الله قلوبهم وعقولهم .

عن جزيرة كوبا

زحف الإسبان على جزيرة كوبا العامرة بالبشر في ١٥١١ . وكان فيها زعيم قبلي مرموق يدعى « هاتوى » هرب إليها مع عددٍ كبير من البشر حين اجتاح الاسبان الجزيرة الإسبانية . ولما علم بأن الإسبان وصلوا إلى كوبا جمع رعيته وقال لهم : لقد سمعت بأن الإسبان قادمون . إنكم تعرفون ما قد جرى في جزيرتنا . وإنهم قادمون إلى هنا ليفعلوا هنا ما فعلوه هناك . هل تعلمون لماذا يفعلون ذلك ؟ قال له بعض الهنود البسطاء : إنهم يفعلون ذلك من أجل ربهم الذي يعبدونه ويقدسونه . إنهم يريدوننا أن نؤمن به ولهذا يقتلوننا . وكان « هاتوى » يملك سلة صغيرة ممتلئة بالذهب ، فابتسم وقال لهم : هذا هو رب المسيحيين . إنه رب الذهب . هيا نرقص له ونرضيه ، فربما سمع دعاءنا وأمر المسيحيين بأن لا يذبحونا . وصرخوا جميعاً : حسناً . حسناً . ثم رقص الناس حتى الإنهاك ، بعدها قال « هاتوى » : اسمعوني جيداً . سوف أرمي بهذا الذهب في النهر لأنهم سوف يقتلوننا بسببه . وكذلك فعل .

وعندما عرف المسيحيون بذلك علقوا مشنقته . ثم جاءه راهب من أخوية القديس فرانسوا يهديه إلى الإيمان المسيحي قبل موته . ولم

يكن زعيم القبيلة قد سمع عن ذلك من قبل . وقال له الـراهب أن عليه أن يغتنم هذا الوقت القصير قبل موته ويؤمن ، لأن إيمانه سوف يـدخله الجنة، وإلا إلى النـار . وسـأل زعيم القبيلة الـراهب : هـل هنالك مسيحيون في الجنة ؟ قال الراهب : معـظمهم هناك . عنـدها قال الزعيم الهنـدي من غير تـردد : إنني أفضل دخـول النار عن أن ألتقي بكم في الجنــة . أرسلني إلى النـار . هكــذا صـارت سمعــة المسيحيين في بلاد الهند بفضل ما ارتكبوه من فظائع .

مرة جاءنا الهنود لاستقبالنا محملين بالهدايا والخيرات . وقد أعطونا كثيراً من السمك والخبز والطعام ، وكل ما يستطيعون تقديمه .

وماذا فعل المسيحيـون لشكرهـم ؟ استـولى الشيطان عـلى قلوبهم فجأة فراحوا يقتلونهم بالسكاكين بلا سبب ولا مبرر . ولقد قتلوا أمام عيني أكثر من ثلاثة آلاف إنسان رجالاً وأطفالاً ونساء . لقد شاهدت وحشية لم يرها قبلي بشر ، ولا خطرت على بال إنسان .

ومرة توجهت مع حاكم المنطقة إلى هافانا . وقبل وصـولنا بـأيام بعثت إلى أسيـاد المنـطقـة رسـلاً أُطمئنهم وأضمن لهم أن لن يؤذيهم أحد ، ذلك لأن الأرض كلها زلزلت بما سمعت عن مجازرنا . وحين وصلنا إلى هافانا استقبلنا زعماء القبائل ، وعـددهم واحد وعشرون . وذُهلت حين شاهدت القبطان يـأمر جنـوده بالقبض عليهم وحـرقهم أحيـاء . وقد ذقت الأمـرين لإنقاذهم وأفلح مسعـاي . لكن عـزيمـة القبطان لم تنثنِ فقد أمر بإحراقهم بعدها فأحرقوا أحياء .

وحين أدرك سكان كوبا أن مصيرهم مماثـل لمصير الجـزر الأخرى وأنهم سوف يقتلون ويُستعبدون قرروا الإنتحار الجماعي . كان الآباء

يشنقون أنفسهم وأهليهم وأطفالهم قبل وصول الإسبان .

وأذكر قصة الضابط الذي منحه الحاكم ثـلاثمائـة هندي فلم يبق منهم بعد ثلاثة أشهر غير ثلاثين . وأعطاه الحاكم أيضاً عـدداً مماثـلاً فقتلهم أيضاً . وكان كلما زيد في العطاء زيد في التقتيل إلى أن مات . ليت الشيطان يأخذ روحه .

وخلال إقامتي في الجزيرة أربعة أشهر توفي أكثر من سبعـة آلاف طفل لأن أهلهم كانوا يصطحبونهم معهم إلى مناجم الـذهب . ولقد رأيت أموراً أفظع عندما كان الإسبان يصـطادون الهنود الـلاجئين إلى الغابات والكهوف . هكذا أبادوا أهالي كـوبا عن بكـرة أبيهم . لقد شاهدتها عامرة بالناس . وأي أسى مر ينتاب المرء عنـدما يـراها بعـد ثلاثة أشهر صحراء موحشة .

غزو اليابسة

في عام ١٥١٤ توجه حاكم جبار إلى اليابسة . كان طاغية فظاً لا يعـرف قلبه الشفقـة أو الـرحمـة . كـان أداة حقيقيـة في يـد الغضب الإلّهي . وكان مصرّاً على أن يملأ هذه الأرض بكثيرٍ من الإسبان .

وكان غيره من الإسبان قد سبقـوه إلى اليابسـة . فقتلوا ونهبوا ، لكنهم لم يتوغلوا بعيداً . أما هذا الحاكم فقد تجاوز في تعذيبـه للهنود كل الذين سبقوه إلى الجزر ، فقد أغار على أكثر أراضي الهنود سعادة ورخـاء ، وهي أراضٍ تمتد إلى أكـثر من خمسمائـة فرسـخ وتصل إلى مقاطعة « نيكاراغوا » . كان فيها أسيـاد عظام ومـدن مهمة وثـروات ذهبية هائلة .

عرفت قبطاناً قام بحملته في هذه اليابسة فقتل أكثر من أربعة آلاف إنسان . روى لي الراهب « فرانشيسكو سان رومان » الذي رافق القبطان كل ذلك وقال إنه شاهدها بعينيه .

وحـين كان الإسبـان يريـدون أن ينهبوا قـرية أو يسرقـوا ذهبهـا وخيراتها يصلون إليها بعد منتصف الليل . وساعتها يقرأون على الهنود المساكين الغارقين في النوم « فرمان » فتحهم (بالإسبانية التي لا يفهمها

كل السكان) ، ويقولون فيه : « يا زعماء قبائل الهنود ، ويا سكان القرية . إننا نعلمكم بوجود إلهٍ واحد ، وبابا ، وملك قشتالة سيد هذه الأراضي كلها ، فاخرجوا وأعلنوا الطاعة له وإلا فإننا سنعلن الحرب عليكم ونقتلكم . ومع طلوع الفجر كان الإسبان يدخلون على هؤلاء المساكين الأبرياء النيام فيحرقون منازلهم القشية ويحرقون الأطفال والنساء وهم أحياء ، كما يحرقون الرجال قبل أن يستيقظوا . كانوا يقتلون من يشاؤون ، ويعذبون من يقبضون عليه حتى الموت ليدلهم على القرى الأخرى الغنية بالذهب . وأما من لا يقتلونه فيسمون على جلده شارة الرق بميسم من حديد . وحين تخمد النيران في البيوت يسارعون إلى نهب الذهب منها .

ذلك دأب الحاكم ودأب المسيحيين الأشرار الذين أقاموا معه في الجزيرة من ١٥١٤ حتى ١٥٢٢ . كان ذلك شأن ضباط الملك أيضاً كما هو شأن رئيس المطارنة في هذه الجزيرة، فقد كان هو أيضاً يرسل خدمه ليأتوه بحصته من الذهب .

لقد سرق الإسبان من هذه المملكة أكثر من ٤٠٠ مليون غرام من الذهب . وأعتقد أن هذا أقل من الرقم الحقيقي . ولم يبعث الإسبان من هذا الذهب المسروق إلى ملك قشتالة إلا النزر القليل . كذلك قتلوا ٩٠٠ ألف إنسان فيها ، ثم قضى الحكام الطغاة الذين تعاقبوا عليها إلى عام ١٥٣٣ على كل ما تبقى من أهلها .

ذات مرة جاء زعيم قبيلة هندي إلى الحاكم ، وقدم له طوعاً (وربما عن خوف) حوالي ٣٦ ألف غرام من الذهب ، فلم يطب خاطر الحاكم الذي أسر في نفسه قائلاً : إذا كان هذا الهندي يعطيني

كـل هذه الكميـة من الذهب طـوعاً فـلا شك في أنـه يملك أضعاف أضعافها . وكان المسكين قد أعطى الحاكم كل ما يملك من الذهب . لكن الحاكم لم يصدق ، وأمر جنوده بتعذيبه لعله يعطي المزيـد . وبما أن الزعيم الهندي لم يكن يملك فعلاً أكثر مما أعطى فقـد استمروا في تعذيبه . ثم ربطوه إلى وتد في الأرض وأشعلوا النـار تحت أقدامـه . وظل على هذه الحال من العـذاب إلى أن « سال نخـاعه عـلى أخمص قدميه » ! .

وذات مرة خرجت فـرقة من الجنـود للنهب ، ووصلت إلى غابـة اختبأ فيها عدد من الهنود خـوفاً من وحشيـة المسيحيين وجـرائمهم . وانقضّ الجنود عليهم فقتلوا منهم ما استطاعوا ، وسبوا سبعين امرأة . واحتشـد الهنـود في اليـوم التـالي وطـاردوا المسيحيـين طلبـاً لنسـائهم وسباياهم . وحين أحس المسيحيون أن الهنود قد اقتربوا منهم ذبحـوا النساء والسبايا وبقروا بطونهن ، فلم يبقوا على واحدة منهن . وأُصيب الهنـود بـالامتعـاض والخيبـة والتـأذي فـراحـوا يلطمـون أنفسهم ويصيحون : يا للأشرار . يا للمسيحيين الهمج . لقد قتلتم نساءنا ، قتلتم أطهر كائنات الدنيا . وقتل النساء عند الهنـدي أكبر دليـل على البهيمية .

عن مقاطعة نيكاراغوا

في ١٥٢٢ أو ربما ١٥٢٣ توجه هذا الحاكم الطاغية لاجتياح مقاطعة « نيكاراغوا » السعيدة . وقد اجتاحها . من يستطيع أن يتغنى بسعادة هذا الشعب الغفير ووفر صحته وحميد خصاله ؟ لقد كان منظراً يخلب الألباب ويفتن العيون تلك القرى المرسومة على ثلاثة فراسخ أو أربعة تتخللها الحقول .

كانت الأرض سهلاً يستحيل على سكانها أن يختبئوا فيها . وكانت أرضاً خصبا تؤتي ثمرها بسخاء . ولم يكن الهنود ليطيقوا التخلي عنها . لذلك صبروا على وحشية المسيحيين واستعبادهم لهم . فقد كانوا بطبيعتهم مسالمين متواضعين . وكان هذا الطاغية وصحبه قد ارتكبوا كثيراً من المذابح والفظائع واسترقّوا واستعبدوا الكثيرين مما يصعب على الإنسان وصفه وإحصاؤه . أما المذابح فترتكب وفقاً لمزاج الطاغية ولأتفه الأسباب . كان يأمر بذبح الهنود إذا تأخروا في الرد عليه أو الوصول إلى قصره ، أو إذا لم يجيئوه بالقمح في الوقت المناسب . ولم يكن هنالك هندي يستطيع النجاة من أحصنته الغاضبة .

وكان يرسل جنوده في حملات لنهب القرى الهندية ، ويسمح لهم

باسترقاق ما استطاعوا منهم . وكان هؤلاء يربطون الهنود لكيلا يرموا بما أثقلت به ظهورهم . ولقد شاهدت حملة استرقّوا فيها ستة آلاف هندي من قرية واحدة فلم يصل منهم إلا ستة أحياء . أما الباقون فقد تساقطوا على الطرق بسبب الجوع أو المرض أو الجراح التي أصابتهم والحمولة التي آذتهم . وكان الإسباني حين يرى بعضهم يسقط أرضاً يقطع رأسه بالسيف لكي لا يزعج نفسه بفك الحمولة عن ظهره .

وذات مرة لم يستطع الهنود بذر القمح الكافي فشح الموسم ولم يتوفر الخبز الكافي للمسيحيين ، فنهبوا كل مؤونة الهنود، ومات أكثر من ثلاثين ألفاً من الأطفال والنساء والشيوخ جوعاً . كان المسيحي يستولي على أرض الهندي ويأكل ثمارها ويستخدم أصحابها ويسترقهم . أما الطفل الهندي فيصبح عبداً بمجرد أن يقف على قدميه .

هكذا أبادوا هذه الشعوب ، وما زالوا يبيدون .

لقد حمّلوا على ظهورهم الخشب مسافات طويلة ، بل حتى المرافىء ليشيدوا مراكبهم . وقد مات كثير منهم على الطريق . لم يوفروا امرأة حبلى أو طفلاً . كانت الحبلى تسقط من الإعياء وتموت ، وكان المراهقون يُؤمرون بالانطلاق إلى الغابات لجمع العسل والشمع ، وكانت الحيوانات الضارية تفني معظمهم .

وانتشرت تجارة الرق في هذه المقاطعة . وقد أمر الحاكم الطاغية كل زعيم هندي بأن يؤمن له خمسين هندياً في كل شهر لاسترقاقهم . وكان جنوده يذهبون إلى هذا الزعيم في آخر الشهر ، فإذا لم يجدوا العدد الكافي رموا بالزعيم إلى كلابهم . وقد اضطر هؤلاء إلى تجميع الرقيق من قبائلهم فإذا كان للأسرة أربعة أطفال ضحت باثنين ، وإذا

كـان لهـا طفـلان ضحت بـواحـد . هكـذا إلى أن يستكمـل العـدد المطلوب . وكانت هـذه المخلوقات الشقيـة تُنقل في مـراكب إلى بلاد « باناما » أو « البيرو » لتُباع هناك . بذلك غادر « نيكاراغوا » أكثر من ٥٠٠ ألف هندي كانوا يتذوقون طعم الحرية كما أتذوقه الآن بينما توفي أكثر من ٦٠٠ ألف داخل الجزيرة ، وذلك مما عانوه .

كل هذا الدمار . . . في أربعة عشر عاماً . إننا لا نجد اليوم في كل بلاد « نيكاراغوا » أكثر من أربعة آلاف أو خمسة آلاف شخص . وما زال الإسبان يقتلون فيهم .

عن ما يُسمى باسبانيا الجديدة

اكتشفت هذه البلاد التي صارت تسمى بإسبانيا الجديدة في عام ١٥١٧ ، ولم يمض عام على اكتشافها حتى ابتدأ المسيحيون بقتل سكانها ، وهم يزعمون أنهم جاؤوا لإعمارها . وبين ١٥١٨ و١٥٤٢ وصل العنف والطغيان أوجهما في بلاد الهند . لقد نسي المسيحيون الله ونسوا الملك ، كما نسوا أنفسهم . وأحب أن أُنبه إلى أن التدمير والتفظيع والقتل والفتك والإبادة في باقي البلاد الهندية لا يُقارن بما جرى هنا في إسبانيا الجديدة .

وإنني أسكت عن الكثير ، ولا أذكر إلا اليسير مما جرى بين ١٥١٨ و١٥٤٢ ، أي الوقت الذي أكتب فيها مذكراتي هذه .

حتى هذا اليوم من شهر أيلول / سبتمبر ما أزال أرى بعيني أفظع أعمال العنف . وهذا ما يؤكد ما ذهبت إليه حين قلت إن العسف والجور والطغيان . . كل ذلك يتزايد مع الزمن .

بين ١٨ نيسان / إبريل ١٥١٨ وعام ١٥٣٠ (أي في اثني عشر عاماً) خرب المسيحيون وأبادوا بسيوفهم الدموية المجرمة أكثر من ٤٥٠ فرسخاً حول مدينة مكسيكو ، وهي مساحة شهدت خمس ممالك

أكبر من إسبانيا وأكثر سعادة وعمراناً منها .

وكانت هذه الممالك أحفل بالناس من طليطلة وقشتالة وفالladولید وسرقسطة وبرشلونة مجتمعة . بل إن هذه المدن جميعاً لم تكن آهلة بالسكان كما هي حال الممالك الهندية حول مكسيكو . وفي هذه الأعوام الإثني عشر قتل الإسبان أكثر من أربعة ملايين من الأهالي نساء وأطفالاً وشباباً وشيوخاً أو أحرقوهم أحياء . وأُكرر هنا : لقد ظلت هذه الوحشية منتظمة طوال ما يسمونه بفترة « الفتوحات » ، وهي في الواقع اجتياحات عنيفة شنها طغاة أجلاف يدينهم قانون الله وقوانين البشر . إننا لا نستطيع أن نقارن هذه الوحشية بكل ما فعله الأتراك من أجل تدمير الكنيسة المسيحية ! إنني لا أتحدث هنا عن الذين يموتون يومياً في ظل العبودية الفظة ، أو في ظل التعذيب والتنكيل ، فليس هنالك لغة أو قدرة أو براعة بشرية تستطيع سرد هذه الوقائع المخيفة التي تجري في بلاد الهند يومياً على أيدي هؤلاء « الزوار » الذين جاؤوا إلى هذه البلاد ، هؤلاء الذين يعتبرون عدواناً خطيراً على بني الإنسان .

والواقع أن تفسير بعض هذه الأعمال الوحشية مستحيل مهما بذلتُ له من جهد وصرفتُ له من وقت ، لكنني سوف أتحدث عن ذلك في المقاطع اللاحقة مقسماً أنني لا أذكر إلا معشار معشار معشار ما جرى .

وهأنذا أذكر واحدة من المجازر العديدة . إنها مجزرة ارتكبت في مدينة يزيد أهلها على ثلاثين ألفاً . واسم المدينة « شولولا » .

حين علم الهنود بمجيىء الإسبان خرج زعماء المنطقة جميعاً لاستقبالهم وكان معهم الكهنة ورئيس الكهنة . وقد سار الموكب للقاء

المسيحيين تظلله الهيبة ويحيط به الجلال . ودعا الهنود ضيوفهم الإسبان لينزلوا في بيوتهم وقصورهم . غير أن الإسبان كانوا مصممين على المجزرة التي كانوا يسمونها « عقاباً » لبسط الهيبة وترويع السكان وتخويفهم . وكانت هذه سياسة الفتح الإسباني : أول ما يفعلونه عندما يدخلون قرية أو مدينة هو ارتكاب مجزرة مخيفة ، مجزرة جماعية ترجف منها أوصال هذه النعاج المرهفة .

ونادى الإسبان كل أسياد المدينة ونبلائها ليسجنوهم فوراً ، ومن غير أن يعلم بذلك أحد من الطلقاء . ثم طلب الإسبان ستة آلاف هندي ليحملوا بضائعهم . وحين جاؤوا سجنوهم كذلك في باحات المنازل . إن مشهد هؤلاء الهنود وهم يستعدون لحمل حقائب الإسبان وبضائعهم يثير الشفقة والأسى ، فهم يجيئون عراة ليس عليهم إلا ما يستر عوراتهم ، ويحملون معهم شباكاً صغيرة فيها طعامهم المتواضع ، ثم يقرفصون جميعاً كالخراف الوديعة . وحين تجمّع الهنود أغلق عليهم الإسبان الأبواب وشددوا عليها الحراسة ، ثم استلّوا خناجرهم وبدأوا بذبح هذه النعاج ، فلم ينج منهم إلا القليل . وبعد يومين أو ثلاثة رأينا بعض الهنود يخرجون أحياء ملطخين بالدم . وكان هؤلاء الناجون قد اختبأوا تحت القتلى (ونجحوا في الإختفاء لكثرة القتلى) . وراح هؤلاء الناجون يسترحمون الإسبان ويستعطفونهم أن لا يقتلوهم . . سدى ، فالإسبان لا يعرفون الشفقة أو الرحمة ولهذا قطعوهم إرباً إرباً . . .

بعد قتل ستة آلاف هندي أمر القبطان بإخراج الأسياد الذين كانوا موثقين بالنير ، وعددهم أكثر من مائة ، ثم أمر جنوده بإحراقهم أحياء . لكن ملكهم استطاع أن يفك وثاقه فهرب مع عشرين أو

ثلاثين ، وربما أربعين من رجاله ، واختبأوا في معبدهم الكبير « كوه » الذي يشبه القلعة . وقاوموا نهاراً كاملاً . ولكن عبثاً مقاومة الإسبان بهنود عزل من السلاح . لقد أمر القبطان الإسباني بإحراق المعبد ومن فيه . وكنا نسمع صراخ الرجال وهم يحترقون : آه من هؤلاء الأشرار . ماذا فعلنا لكم ؟ لماذا تقتلوننا ؟ إن زعيمنا الأكبر « مونتيزوما » في مكسيكو سوف ينتقم منكم . وقيل لي إن القبطان كان يغني عندما كان جنوده يذبحون الهنود . وينشد :

« هانيرون ينظر إلى الحريق
المشتعل بين روما وصخرة ترميا
الأطفال والشيوخ يصرخون
وهو لا يشعر بشيء » .

وقام الاسبان بمجرزة أخرى في مدينة تيباكا ، وهي أكبر من مدينة شولولا ، وعدد سكانها أكثر . ولم تسلم من فظائعهم الوحشية .

ومن هناك توجهوا إلى مكسيكو فأرسل إليهم ملكها الكبير « مونتيزوما » بألوف الهدايا ، وأمر بإحياء الحفلات على طول الطريق المؤدية إلى مكسيكو ، ثم أوفد إليهم أخاه ليستقبلهم بالترحاب قبل وصولهم إلى مكسيكو بفرسخين ، وكان معه عدد من الأشراف المحملين بهدايا الذهب والفضة والملابس . وعندما وصلوا مدخل المدينة جاء « مونتيزوما » لاستقبالهم بنفسه ، تصحبه حاشيته ، ثم اصطحبهم إلى قصره وأنزلهم ضيوفاً عنده . وقد علمت أن الإسبان انقضوا على الملك في اليوم نفسه وأوثقوه بسلاسل الحديد . كان الملك يجهل الحذر .

وحين علم الهنود بذلك قرروا إحياء الحفلات حول القصر إكراماً لملكهم الموثق بالسلاسل ، فعسى أن تشفع له آلهتهم ، كما أقاموا الرقصات والاحتفالات في كل أنحاء المدينة . ولبس الهنود في هذه المناسبة أجمل ثيابهم وأغلى حليهم ، واشترك في ذلك أكثر من ألفي شريف ونبيل : صفوة القوم . عندها وجه القبطان الإسباني رجاله إلى مختلف أنحاء المدينة حيث كانت الاحتفالات بحجة أن الجنود يرغبون في مشاهدتها ، وأمر جنوده بالانقضاض على الهنود في ساعة معلومة . وبينما كان الهنود يرقصون ويغنون صرخ القبطان : « عليهم يا قديس جاك ، يا قديس جاك عليهم » ! وابتدأ المسيحيون بتمزيق تلك الأجساد اليانعة البضة بسيوفهم ، وسفك تلك الدماء الكريمة . لم يتركوا هندياً واحداً على قيد الحياة . وكذلك فعل باقي الجنود .

مثل هذه الأفعال نشرت الرعب وأشاعت الذهول في هذه الشعوب البريئة ، وأصابتهم الحسرة والمرارة . ولسوف تبقى هذه الشعوب تنشد أساها في أغانيها الوطنية ورقصاتها حتى نهاية العالم ، ولسوف تندب ما أصاب سلفها الشريف النبيل من فجائع .

حين سمع باقي الهنود بهذه الوحشية ثاروا ، على الرغم من أنهم تحملوا سجن ملكهم بكل تسامح . وكان الملك قد أمرهم بأن لا يعتدوا على المسيحيين ولا يقاتلوهم . لكنهم حملوا سلاحهم وانقضوا على الإسبان ، وجرحوا كثيراً منهم . وكانت تلك هي المرة الأولى التي يدافع فيها الهنود عن أنفسهم . . عند ذلك أخرج الإسبان الملك « مونتيزوما » من سجنه وأصعدوه إلى الشرفة وهم يحملون الخناجر ويهددون بذبحه . وأمر الملك شعبه بإلقاء السلاح وعدم الهجوم على

القصر . أما الهنود الذين ملأهم الغضب والحزن على العدد الهائل من قتلاهم فراحوا يهددون بانتخاب ملك جديد يقود معاركهم .

ومع ذلك فقد اضطر الهنود إلى وقف المعارك أربعة أيام ، لكنهم عادوا في اليوم الخامس وقاتلوا ببسالة وبطولة مما اضطر الإسبان إلى الفرار من المدينة والنجاة بجلدهم . وحين علم الهنود بذلك قتلوا الكثير منهم على الجسور المؤدية إلى البحيرة . وإنني لأشهد بأن دفاع هذه الشعوب كان عادلاً جداً ومقدساً جداً . إن كل عاقل يقر هذا الدفاع ويدعمه .

وما لبث المسيحيون أن عادوا إلى المدينة مدججين بالسلاح ، وأغاروا عليها وتفننوا في تعذيب أهلها تعذيباً ليس له مثيل ، وقتلوا أشرافها أو أحرقوهم أحياء . وقد نالت مكسيكو القسط الأوفر من الدمار والتعذيب اللذين امتدا عشرين فرسخاً بعيداً عن مكسيكو . ثم اجتاح الطاعون مقاطعة « بانوكو » المكتظة بالبشر فلم يكتفِ الإسبان بما فعل الطاعون بل أتبعوه بمذابح مخيفة .

ودمر الإسبان أيضاً مملكة « كوتوتيبيك » و« بيلسينغو » و« كوليما » ، علماً بأن كل واحدة من هذه الممالك أكبر من مملكة قشتالة . إن وصف المجازر التي ارتكبت في هذه الممالك أمر يفوق طاقتي الإنسانية ، بل يكاد يكون مستحيلاً . . كان هؤلاء المنحطون الطائشون لا يوحون إلا بالرعب والخشية ، فهم لا يكترثون بحق ، طبيعياً كان ، أو إنسانياً ، أو إلهياً . إنهم يمتهنون القيم والمعايير ، ولسوف يرون العذاب ومأواهم جهنم بما يرتكبون من سيئات وموبقات تُنسب لملوك قشتالة .

لقد وجه هذا الطاغية قبطانين يبزانه وحشية وجبروتاً إلى ممالك عظيمة مزدهرة وشعوب سعيدة تسكن بلاد « الغواتيمالا » الحافلة بالبشر والتي تقع على بحر الجنوب ، وإلى بلاد « ناكو » ، و« هندوراس » أو « غوامورا » على بحر الشمال . وكان قلبا هذين القبطانين كقلب الطاغية لا يعرف شفقة أو رحمة .

وكانت المملكتان متجاورتين ، لا تبعد حدودهما مائتان أو ثلاثمائة فرسخ من مكسيكو . ولقد وجه هذا الطاغية قبطانه الأول براً ، ووجه الثاني عن طريق البحر ، وأصحب كلاً منهما ، بعدد من الفرسان والمشاة. وقد تفنن هذان الجباران في الإجرام والإثم والخراب والظلم والفتك والوحشية ما سيروّع القرون الحاضرة والمقبلة ويصيبها بالهول ، وما لا تستطيع الكتب الكبيرة أن تستوعبه (وأخص القبطان الذي توجه إلى غواتيمالا ، لأن الثاني عوجل بالموت) . إن أحداً من البشر لن يستطيع أن يحصي كم قتل هذا الوحش ، أو مساحات الأراضي التي أقفرها من البشر . أما القبطان الذي توجه بحراً فقد نهب قرى الساحل وطرد أهلها . وفي مملكة « يوكاتان » الواقعة على طريق مملكة « ناكو » و« غوامورا » جاء الهنود لاستقباله بالترحاب والهدايا ، لكنه كغيره من الإسبان لم يحفل بهم بل وجه جنوده لتدمير القرى وقتل أهلها . وقد حدث أن تمرد أحد جنود القبطان وسبقه إلى الأراضي القريبة من غواتيمالا ، فنهبها وأحرق أهلها أحياء . وقد ارتكب فظائعه على مساحة أكبر من ١٢٠ فرسخاً . ولما لحق به قبطانه لم يرَ إلا الدمار والقتلى . أما من تبقى من الهنود ونجا فقد امتلأ بالنقمة وهجم على الإسبان ، فنشبت معارك دموية بين الطرفين .

وظل الإسبان يعيثون فساداً وخراباً من عام ١٥٢٤ حتى ١٥٣٥

ويصـدرون العبيد إلى إسبـانيا بـالسفن ، ويتقاضـون لقـاءهم النبيـذ والثياب والأغذية .

ولقد مررت بهذه الممالك في طريق العودة ، وكاد قلبي أن ينفطر لرؤيتها خراباً أقفـر من أهله . لقد قتـل الإسبان خـلال الأحد عشر عاماً أكثر من مليوني شخص في هـذه البلاد ، وتـركوا أقـل من ألف شخص في مساحة تتجاوز مائة فرسخ مربع . وإنهم ماضون في القتل يوماً بعد يوم ومستمرون في الاستعباد .

عن مملكة غواتيمالا

لم يكد القبطان يصل إلى هذه المملكة حتى ارتكب مجزرة كبيرة ، وبرغم ذلك فقد هب أكبر أشراف المملكة لاستقباله والترحاب به . وجاء على محفة تواكبه الأبواق والطبول في موكب مهيب ، وجاء معه كثير من أشراف مدينة « التاتلان » عاصمة المملكة . وأهدى الهنود للإسبان الغالي النفيس . وأقاموا لهم مأدبة كبيرة . ونام الإسبان ليلتهم تلك خارج المدينة لأن ذلك أكثر أماناً .

وفي اليوم التالي نادى القبطان كبير الأشراف وكثيرين غيره فجاؤوا جميعاً كالنعاج الوديعة . وسجنهم القبطان جميعاً ، وأمرهم بإعطائه كل ما يملكونه من ذهب . وأجابوه أنهم لا يملكون ذهباً لأن أراضيهم خالية منه . عندها أمر جنوده بإحراقهم من غير ذنب أو محاكمة .

وحين علم باقي الأشراف بذلك هربوا من القرى ولجأوا إلى الغابات وأمروا أبناء شعبهم أن يخدموا الإسبان كما يخدمون أسيادهم ، وطلبوا إليهم أن لا يعلنوا عن مكان اختبائهم . وانصاع الشعب لأمر أشرافه ، فلاقوا الإسبان بالترحاب والطاعة . غير أن القبطان لم يعنه من ذلك شيء وطلب إليهم أن يكشفوا مخبأ أشرافهم ، فلما أبوا قتلهم

جميعاً . وكان كلما جاء فوج منهم إليه معلناً طاعته سألهم عن أشرافهم ، ثم قتلهم .

ومع الزمن حذق الإسبان وبرعوا في فن القتل والذبح ، وصاروا يفعلون ذلك بطريقة أسرع ووقت أقصر . وأذكر أن الإسبان دخلوا مرة إلى قرية كبيرة قوية (وكان سكانها واثقين من براءتهم وواثقين من أنفسهم) فلم ينصاعوا لما طلب الإسبان منهم ، فاجتاحها الإسبان وقتلوا من فيها في أقل من ساعتين .

وحين رأى الهنود أنهم لن يستطيعوا أن يستعطفوا قلوباً بهذه الوحشية ، وأنهم إلى الذبح لا مفر ، وأنهم لن يستطيعوا دحر الإسبان ، قرروا الانتحار . كانوا شبه عراة ، عزلًا من السلاح ، ضعاف البنية ، ويستحيل عليهم الوقوف في وجه جيوش متوحشة جهنمية تقاتل فوق الأحصنة وهم مشاة حفاة . وما لبث الهنود أن اخترعوا طريقة لأذى الإسبان . كانوا يهيئون حفراً صغيرة على الطرقات التي يسلكها الإسبان بأحصنتهم . وكانت هذه الحفر تملأ بالأوتاد المسنونة الحادة لقتل الأحصنة . كما كانت تُغطى بالعشب للتمويه . وانطلت الحيلة على الإسبان مرة أو مرتين ، ثم سرعان ما عرفوا كيف يتجنبوا هذه الحفر ، وكيف ينتقمون . كانوا كلما التقطوا هندياً ألقوا به في هذه الحفر حياً ، مهما كان عمره أو جنسه . هكذا كانوا يرمون فيها الحبالى والمرضعات والشيوخ والأطفال . وكان مشهداً يبعث على البكاء حين كنا نمر بالقرب من هذه الحفر الممتلئة بالهنود وقد اخترقت الأوتاد أجسادهم . وكنا نرى الكلاب السلوقية تعيش على لحم هؤلاء المساكين . لقد ارتكب الإسبان هذه المجازر منذ ١٥٢٤ حتى ١٥٣١ . وأترك للقارىء تقدير عدد القتلى .

وأذكر فظاعة أخرى ارتكبها هذا القبطان من بين ما ارتكبه من فظائع . كان ذلك في مقاطعة « كوزكاتان » ، حيث توجد اليوم مدينة سان سلفادور تقريباً . كانت أرضاً سعيدة تشرف على معظم الساحل الذي يمتد ٤٥ فرسخاً على بحر الجنوب . ولقد خرج أكثر من ثلاثين ألف هندي من العاصمة « كوزكاتان » لاستقبال الإسبان . كانوا يحملون معهم الدجاج والأغذية . وبعد أن أخذ الإسبان الهدايا أمر القبطان بتوزيع الهنود على الجنود عبيداً ، فكانت حصة كل جندي ١٥٠ عبداً هندياً . وبذلك تشتت أسر هؤلاء الهنود الأبرياء بين هذا الجندي الإسباني وذاك .

بعد ذلك طلب القبطان من الأشراف أن يحضروا له ذهبهم . وكان هذا أول ما يطلبه الإسبان ، فقال لهم الهنود إنهم لا يملكون منه الكثير ، ثم جمعوا لهم عدداً هائلاً من الفؤوس النحاسية المطلية بالذهب (وكانت هذه أدواتهم الرئيسية) . لكن القبطان استعمل محكاً فعرف أن الفؤوس من نحاس وأنها مطلية بالذهب طلاء ، لهذا أمر جنوده بتصدير هنود هذا البلد عبيداً إلى « البيرو » . وكان يهتز غضباً ويصرخ : فليذهب هذا البلد إلى الجحيم . ولنرحل ما دمنا لم نجد ذهباً . وقاوم بعض أولئك المساكين ، فشن عليهم الإسبان حرباً ضارية وذبحوهم ثم عادوا إلى « الغواتيمالا » حيث كانوا قد شيدوا لأنفسهم مدينة أنزل الله عليها عذاب الطوفان والحريق ومحاها عن بكرة أبيها .

وكان الهنود يقدمون أولادهم (الصبيان والبنات) للإسبان الذين ملأوا منهم سفناً كاملة . أما من كان يرفض تقديم أولاده فكان يُقتل . ولقد قتل هذا القبطان المجرم هو وأخوه أكثر من أربعة ملايين

أو خمسة ملايين نسمة بين عام ١٥٢٤ و ١٥٤٠ . وإنهم ما زالوا يقتلون الأحياء الباقين . ولسوف يستمرون في القتل .

وإليكم واحدة من فظائع الإسبان .

مرة كان هذا القبطان متوجهاً إلى الحرب بجيش من عشرة آلاف أو عشرين ألفاً . وكان معه عدد كبير من الهنود الذين ساقهم (عبيداً) بعد تعذيبهم . وكان القبطان لا يقدم لرجاله الطعام ، لكنه سمح لهم بأن يأكلوا الهنود الذين معهم أو الذين يلتقطونهم أثناء الغارات على المدن والقرى . هكذا صار معسكره أشبه بمسلخ يتراكم فيه لحم البشر. كان الرجال يقتلون الأطفال ويشوونهم . وكانوا يقتلون الإنسان من أجل أن يأكلوا لحم كفيه وقدميه قائلين إنها أشهى لحم الإنسان . وحين عرف سكان المناطق القريبة بهذه الأعمال البهيمية أُصيبوا بالهلع ولم يعرفوا أين يختبئون .

وقتل هذا الطاغية من الهنود عدداً كبيراً بطريقة أخرى . كان يحمل عليهم قطع الخشب الكبيرة ليبني منها السفن . كانوا يحملونها مسافة تبلغ ١٣٠ فرسخاً . كما كان يحمل عليهم قطع المدفعية الثقيلة ، فكانوا يموتون على الطرقات. وكان يملأ السفن بالهنود الذين يموتون جوعاً وعطشاً . والحق أقول إنني إن وصفت كل فظائع هذا الطاغية لأرعبت العالم .

لقد شيد هذا الطاغية أسطولين أحرق بهما كل هذه الأراضي وكأن السماء كانت تمطر ناراً . آه ، كم ترك من أيتام ، وكم سرق أطفالاً من أهلهم ، وكم حرم رجالاً من زوجاتهم ، ونساء من أزواجهن . وآه كم ارتكب جنوده الزنا والفسق والدعارة والعنف . كم استعبد بشراً ، وكم أهرق دماً وأسال دموعاً .

عن اسبانيا الجديدة
في بانوكو وجاليسكو

لم تقتصر مذابح الإسبان على الممالك التي ذكرناها ، ففي عام ١٥٢٥ دخل طاغية جديد إلى مملكة « بانوكو » فقتل الكثير ، وساق عدداً هائلاً من الهنود الحمر إلى جزيرة كوبا لبيعهم . وقد أحضر واحد من جنود هذا الطاغية ثمانية آلاف هندي ليبنوا سوراً لأرضه . وقد سقط معظمهم موتى من الجوع . وكان الجندي يبيع كل مائة هندي بحصان .

وتوجه هذا الطاغية إلى مملكة « ميشواكان » التي تبعد أربعين فرسخاً عن مكسيكو ، وكانت مثلها سعيدة وحافلة بالسكان . وخرج ملك المنطقة مرحباً به ، وقدم له الهدايا النفيسة والحلي . ولكن الطاغية كان يسمع أن هذا الملك شديد الغنى وأنه يملك كنوزاً من الذهب والفضة . لهذا أمر بتعذيبه إلى أن يسلم كنوزه . وجيء بالملك فأُوثقت قدماه ، وربطت يداه إلى لوح من السنديان ، ووضعت تحت قدميه محرقة ، وأوكل بتعذيبه واحداً من الزبانية الإسبان . كان هذا الجلاد يغمس خرقاً بالزيت المحمى ويرشّ بها جسد الملك ليشوى

لحمه جيداً . وكـان جلاد إسباني آخر يقف أمام الملك . ومعه كلبه السلوقي يهيجه على لحم الملك ويهيّجه على التهامه . هكذا عذبوه إلى أن أنقذه أحد الرهبان ، لكن المسكين توفي من حروقه .

واكتشف هـذا الطاغيـة أن الهنـود يخبئـون أصنـامهم خـوفـاً من الإسبان الذين كانوا يسرقونها ظناً منهم بـأنها مصنوعـة من الذهـب . وكانوا يخفونها لأنهم لا يؤمنون بـآله الإسبـان. وأغار الـطاغية عليهم ذات ليلة فنهب أصنامهم بعد أن عذبهم أشد العذاب . وحين اكتشف أنها ليست من ذهب ، أجبر أشراف القبائل على شرائها بما يملكونه من ذهب . وقبـل الأشراف ذلـك لأنهم كـانـوا يعبـدون هـذه الأصنـام ويقدسونها . تلك هي أفعال الإسبان وطريقتهم في عبادة الرب .

ودخـل هذا الـطاغية إلى مقـاطعة« جـاليسكو » التي كـانت تعج بأهلها كما تعج خلية النحل ، وتمتد قراها على أكثر من سبعة فراسخ . وحين علم الهنود بمقدم الإسبان خرجوا إليهم مرحبين محملين بالهدايا النفيسة والذهب . وأقاموا للإسبان الاحتفالات . وهنا فعل الطاغيـة ما فعله في الممالك الأخرى . لقد أخضع الهنود للتعذيب ليحصل على ما يعتبره إلهاً له ، أعني الذهب . وارتكب الإسبان هنا أيضاً ما ارتكبوه في الممالك الأخرى من قتل وذبح واغتصاب . وكان جنود هذا الطاغية يغتصبـون النساء ويجـبرونهن على رمي أطفالهن . وأذكر أن مسيحياً شريراً أراد اغتصاب صبية أمام أمهـا ، وحين رفضت الاستسـلام له قطع يدي الأم وطعن الصبية بالخنجر .

وساق الطاغية أكثر من خمسة آلاف هندي رجالاً ونساء وأطفـالاً ليبيعهم في أسواق العبيد . وكان فيهم الرضع أيضاً . وأقـدم رجالـه

على ارتكاب الفظائع والأعمال الوحشية كغيرهم من المسيحيين الإسبان ، فكانوا يقطعون ألسنة الهنود ويطعمونها إلى الكلاب . وقيل لي إن هذا الطاغية قد أحرق ٨٠٠ قرية في « جاليسكو » ، فهرب من هرب واختفى في المغارات والكهوف . وقد حاول بعضهم التحصن ببعض الصخور لكن الاسبان قتلوهم لأنهم، كالعادة ، كانوا مدججين بالسلاح .

هكذا اكتشف المسيحيون الإسبان بلاد الهنود وهكذا فتحوها .

وإنه ليحق للهنود ، باسم كل الحقوق والشرائع والقوانين الطبيعية والسماوية البشرية أن يقطعوا الإسبان تقطيعاً ، لو ملكوا السلاح الكافي والقوة اللازمة .

كان الإسبان طوال هذه السنين يكتبون ويزعمون أن الله أرسلهم لفتح هذه البلاد التي كانت آمنة مطمئنة ، وإن الله هو الذي نصرهم على هذه الأمم . وكانوا يحمدون الله في صلواتهم ويشكرونه لأنه أعطاهم كل هذه الخيرات ولأنهم قاموا بكل هذا الطغيان . إنهم يفعلون ذلك كما كان الطغاة اللصوص الذين قال عنهم النبي زكريا : « مبارك هو الرب . لقد صرنا أغنياء » .

عن مملكة « يوكاتان »

بفضل الرياء والكذب الـذي كان يبـديهما للملك قشتـالة فقـد تم تعيين طاغية إسباني حاكماً على مملكة يوكاتان . وكانت هـذه المملكة أغنى بالثمار والفواكه والأغذية من مملكـة مكسيكو[1] . كـذلك كـانت أغنى بالعسل والشمع من كل بلاد الهند الأخرى . وكان محيطها حوالى ثلاثمائة فرسخ .

أما أهلها فكانوا لطافاً ظـرافاً لا يعـرفون الشر والإثم ، وكـانوا أصحـاب حكمـة وأدب جم . كـان شعبـاً يستـأهـل أن يعـرف الله ويعبـده . وكان في وسـع الإسبان أن يشيـدوا في هـذه البـلاد مـدنـاً عظيمة ، وأن يعيشوا مع هذا الشعب كأنهم في جنة أرضية . غير أنهم

---

(١) تقول بعثة « روي فرايتس » التي أعادت اكتشاف المنطقة في عام ١٩٨٦ أنها اكتشفت بـالقرب من يـوكاتـان ١١٢ موقعـاً من حضارة المـايا ، يـدل بعضها عـلى نظام ري متطور ، مما يجعلك تتأكد من أن هذه المنطقة كانت عـامرة بمـلايين البشر . ويقـول فرايتس أن المنطقة كانت تشهد زراعة متطورة . أما بيتر هاريسـون (عالم الآثـار من جامعة نيو مكسيكو) فقال إن عدد سكان يوكاتان كان أكثر من ١٥ مليوناً . وهذا ما يؤكد على أن تقديرات « لاس كازاس » كانت متواضعة إذا قارناها بالواقع .

لم يكونوا يستأهلون ذلك بسبب جشعهم وذنوبهم العظيمة وتوحش طبائعهم .

وأقدم هذا الطاغية على شن الحروب الضارية على هذه الشعوب البريئة الطيبة التي لا تؤذي ولا تعتدي على أحد . كان معه ثلاثمائة جندي . وبما أن الأرض هنا لم تكن غنية بالذهب كما هي الحال في المناطق الأخرى فإن هذا الطاغية استخرج الذهب من أجساد هؤلاء المساكين وأرواحهم التي ضحى المسيح من أجلها . فمن لم يمت بسيفه مات باستعباده . كان يقايض بهم ، فيبيع منهم العشرات لقاء شيء من الخل ، أو لحم الخنزير ، أو ملابس ، أو أحصنة ، أو ما يحتاجه هو ورجاله . وكان يقدم خمسين صبية هندية مقابل قنينة زيت أو نبيذ . وكان سعر الفتيان مماثلاً لسعر الفتيات . ولقد رأيته يبيع ابن أمير هندي بقطعة من الجبنة ، ومائة هندي مقابل حصان . لقد مارس هذا الطاغية وحشيته طوال سبع سنين ، فقتل وأفقر واجتاح من غير شفقة أو رحمة .

ولن يصدق أحد كل ما جرى من وحشية وجور في « يوكاتان » . وإنني لا أذكر هنا إلا النزر من الحوادث . كان المسيحيون المجرمون يطاردون الهنود بكلابهم الوحشية ، لا فرق بين رجل أو امرأة أو طفل . كانت هنالك هندية مريضة سمعت نباح الكلاب الوحشية وأدركت أنها لن تنجو من هذه الكلاب التي ستلتهمها هي ورضيعها ، فشنقت نفسها وربطت رضيعها بأحد أقدامها ، غير أن الكلاب كانت أسرع منها ، فما لبثت أن أدركتها ومزقت رضيعها . وقد توصل راهب إلى تعميده قبل أن يلفظ الروح !

وقبل أن يغادر الإسبان هذه المملكة سأل أحدهم طفلاً (ابن زعيم قرية) أن يأتي معه لمطاردة الهنود . ورفض الطفل ، فقال له الإسباني هيا معي وإلا فإنني سوف أقطع أذنيك ، وظل الطفل يرفض . عندها استل الإسباني خنجره وقطع أذنيه واحدة بعد الأخرى . وبما أن الصبي ظل مصراً على أن يبقى في قريته فقد جدع له الإسباني أيضاً أنفه وهو يضحك كأنه يقص له شعرة من رأسه . وقد تبجح هذا الإسباني أمام أحد الرهبان بكل وقاحة وقال إنه حبّل عدداً كبيراً من النساء ليبيع أطفالهم ويصنع بذلك ثروة .

وذات يوم خرج إسباني لصيد الغزلان والأرانب ، ومعه كلابه السلوقية لكنه لم يصطد شيئاً ، وبدا له أن كلابه جائعة فسرق طفلاً من أمه فقطع أطرافه وأعطى كل كلب حصته . وحين التهمت الكلاب تلك القطع رمى لها بالجسد الصغير لكي تلتهمه . ذلك هو بطش المسيحيين في تلك المناطق وتلك فظائعهم . لقد قسيت قلوبهم فعاملوا الهنود الذين خلقهم الله على صورته . وكفر عن خطاياهم بدمه[1] . ولسوف أروي ما هو أفظع من ذلك .

ولن أتكلم عن كل الأعمال الوحشية التي ارتكبها أدعياء المسيحية ، لأن العقل لا يستطيع تصورها ، لكنني أُريد أن أنهي حديثي بما يلي :

حين رحل الطغاة من هذه المملكة متوجهين إلى بلاد البيرو الغنية بالثروات المعدنية ، توجه الأب « جاكوب » مع أربعة من رهبانية

(١) هكذا تقول التوراة إن الله خلق الإنسان على صورته الجسدية . وكذلك تزعم النصرانية التاريخية أن المسيح قد صُلب ليفدي الناس من خطاياهم .

القـديس « فرانسـوا » إلى « يوكـاتان » ، من أجـل تهدئـة روع هـذه الشعوب والقيام بحملة تبشيرية تهـديهم إلى المسيحية ، أو تهـدي من تبقى منهم بعـد المجـازر التي دامت سبعـة أعـوام . وأظن أن هؤلاء الرهبان قد وصلوا في عام ١٥٣٤ . وكانوا قد بعثوا ببعض الهنود رسلاً لهم ليسألوا الأهالي عما إذا كانوا يقبلون بقدوم الرهبان إلى أراضيهم . واجتمع الهنود مراراً ، وجمعوا المعلومات حول نوايا هؤلاء الذين يقول بعضهم أنهم « أخوة » ، وبعضهم أنهم « آباء » ، وحاولوا أن يعـرفوا ما يختلف به هؤلاء الرهبان عن بقية المسيحيين الإسبان ، وقرروا أخيراً أن يستقبلوهم ، شرط أن يجيئـوا وليس معهم إسباني واحـد . وفعلاً فقد مضى هؤلاء الرهبان وحدهم إلى « يوكاتان » ، وبشروا بالإنجيل ، وبالنوايا المقدسة لملوك إسبانيا تجاه الهنـود . ولقد أعجب هؤلاء بهـذه العقيدة ، وفرحـوا بحديث الـرهبان عن ملوك قشتـالة ، (ذلـك لأن المسيحيين الإسبان لم يبشروا طوال الأعوام السبعة) . وبعد مرور ٤٠ يـوماً عـلى تبشير الـرهبان أحضر الهنـود أصنامهم وسلمـوها للرهبـان ليحرقوها . ثم جاؤوا بأطفالهم الذين يحبونهم أكبر من بؤبؤ أعينهم من أجـل أن يهديهم الـرهبان إلى المسيحيـة ويعلموهم . وقـاموا بتشييـد الكنائس والمعابد . ثم دعوا الرهبان إلى التبشير في مقاطعـة أخرى ، وحصل ما لم يحصل من قبل ، عـلى الرغم من أن الإسبان يكذبـون ذلك وينكرونه . .

وكان الرهبان ممتلئين بالفرحة والأمل لأن جميع السكان قـد آمنوا بالمسيح . لكن أمراً فظيعاً قد حصل فجأة ، إذ جاء إلى المنطقة ثلاثون إسبـانياً طـاغياً يحملون معهم الأصنـام التي نهبـوهـا من المقـاطعـات الأخرى . ونادى زعيمهم رئيس القبيلة الهندية وأمـره أن يأخـذ هذه

الأصنام وأن يوزعها فيقايض كل صنم بهندي أو هندية ليصيروا عبيداً . وهدده أنه سيعلن عليه الحرب المميتة إذا تمرد . وأذعن رئيس القبيلة . فوزع الأصنام على الأهالي وأمر أتباعه بعبادتها . وأن يقدم كل رب أسرة فرداً منها لقاء الصنم . وأطاع الهنود فكانوا يقدمون طفلاً من أطفالهم مقابل الصنم ، وشاركوا بذلك في هذه التجارة النجسة . وكان أحد هؤلاء اللصوص الإسبان مريضاً على حافة قبره ، وكان يضع أكواماً من هذه الأصنام تحت سريره . وقد طلب من خادمته الهندية أن لا تقبل بمقايضة الصنم بدجاج لأنها أصنام جيدة ثمن كل واحد منها عبد ، على الأقل .

فليتأمل المرء في جدوى مجيىء الإسبان إلى بلاد الهند . وهل عادت بالفائدة على الإسبان . وليتأمل هذه النماذج المسيحية التي جاءت وكيف عبدت ربها وزرعت بذرة الإيمان في قلوب هذه الشعوب . ليتأمل المرء ما إذا كانت جريمة الإسبان أخف من جريمة الذي صنع عجلين من ذهب ليعبدهما الشعب[1] . وليتأمل ما إذا كانت جريمة الإسبان مماثلة لجريمة يهوذا[2] . تلك هي أعمال الإسبان في الهند وتلك هي صنائعهم ، أولئك الذين يركضون وراء الذهب ، ويتعطشون له ، أولئك الذين باعوا المسيح وأنكروه وما زالوا يبيعونه وينكرونه .

وحين وجد الهنود أن ما وعدهم به الرهبان ليس إلا كذباً ، وحين

---

(١) الشعب بالمعنى المسيحي اللاهوتي لا يعني إلا اليهود .

(٢) يهوذا ، هو الذي دل الرومان على المسيح وسبب تلك النهاية التي تقول بها النصرانية التاريخية .

وجدوا أن الإسبان أنفسهم يبيعونهم الأصنام ويحضرونها من بلادٍ أخرى ، بينما سلموا أصنامهم بأنفسهم إلى الرهبان ليحرقوها ويعبدوا إلهاً واحداً ، حين رأى الهنود كل ذلك بأعينهم ثاروا جميعاً على الرهبان ، وجاء زعماؤهم إليهم وقالوا لهم : لماذا خدعتمونا وأكدتم لنا أن المسيحيين لن يدخلوا بلادنا بعد اليوم ؟ لماذا أحرقتم آلهتنا ثم جاء مسيحيوكم إلينا ليبيعونا هذه الآلهة التي أحضروها من بلاد هندية أخرى ؟ هل تنكرون آلهتنا وتؤمنون بآلهة البلاد الأخرى ؟ .

وحاول الرهبان أن يهدئوا من روع زعماء الهنود ، لكنهم لم يستطيعوا الإجابة على أسئلتهم . ثم ذهبوا إلى زعماء الإسبان الذين أحضروا الأصنام وباعوها وأخبروهم بالأضرار التي ألحقوها بالمسيحية ، فلم يصغِ الإسبان إلى كلام الرهبان . أمام كل ذلك قرر الهنود قتل الرهبان لكن هؤلاء هربوا تحت جنح الليل ، ثم عادوا بعد أن هدأت ثائرة الهنود ، وأخبروهم أنهم غير مسؤولين عن مجيء الإسبان . لكن الإسبان ظلوا هناك يعيثون فساداً وآثاماً برغم استعطاف الرهبان لهم . ولم يستطع الرهبان متابعة تبشيرهم بين الهنود بسبب جرائم الإسبان . ولذلك قرروا مغادرة « يوكاتان » نهائياً قبل أن يثور عليهم الهنود من جديد . بذلك تخلوا عن هذه المملكة وتركوها من غير نور المسيحية . وهكذا ظلت شعوبها في جهلها وبؤسها ، وضنّ الرهبان على الهنود بنعمة « البشارة » وحرموهم من معرفة الله ، تلك المعرفة التي كانوا يتعطشون إليها ، كأنهم كفوا بذلك عن سقاية زرع كانوا قد بذروه حديثاً . كل ذلك جراء شرور الإسبان وآثامهم .

عن خراج « سانتا مرتا »

كانت أراضي « سانتا مرتا » غنية بـالذهب ، وكـان أهلها الهنـود بارعين في استخراجه . من أجل ذلك لم يتوقف الإسبان الـطغاة عن الإغارة على هـذه المناطق بسفنهم لنهبهـا وسرقة أهلهـا واغتصاب مـا يمتلكون من ذهب . كانوا يعودون إلى سفنهم سريعاً .

ولقـد فعلوا ذلك منـذ عام ١٤٩٩ حتى عـام ١٥٤٢ ، وذبحـوا مئات الآلاف من شعوبهـا . وفي ١٥٢٣ قرر بعض هؤلاء الـطغاة أن يسكنوا في هذه المنطقة . وبما أن الأراضي غنية كما أسلفت فقد تعاور عليهـا الطغـاة . وكانت كلما دخلت أمـة لعنت أختها ، وفـاقتهـا في ارتكاب الفظائع .

في عـام ١٥٢٩ جاء طـاغية أسـوأ من أسلافـه . لم يكن يعـرف الخوف من الله ، أو الرأفة بالعباد . لقد نهب كنوزاً هائلة ، ثم مات قتلاً على يد طاغية آخر استولى على كنوزه . وتوغل الطاغيـة الجديـد ورجاله في البلاد ، واجتاح وقتـل وعذب حتى جمـع أكثر مـا استطاع تجميعه من الذهب . وفي ذلك العام أخلى منطقة تزيد مساحتهـا على ٤٠٠ فرسخ من أهلها .

ووالله لـو أنني اضطررت إلى أن أصف وأُفصـل في وصفي آثـام الإسبان ومذابحهم وعسفهم وخـطايـاهم وكفـرهم في هـذه المملكـة وحدها ، وإبادتهم هذه الشعوب الآمنة الـبريئة لكتبت مجلدات كبـيرة جـداً . لكنني أكتفي بالاستشهـاد من رسالـة طـويلة وجهها مـطران « سانتا مرتا » إلى مولانا ملك قشتالة بتاريخ ٢٠ أيار / مايو ١٥٤١ :

« يا قيصرنا المقدس . إن الوسيلة الـوحيدة لإنقـاذ هذه الأراضي هي أن ينتزعها جلالتكم من سلطة الآباء المشوهين ، وأن يهبها زوجاً يعاشرها بإحسان تستأهله وتستحقه . إن ذلك يجب أن يتم بسرعة ، وإلا فإنها ستُباد عن بكرة أبيها ، لأن الإسبان يستنزفونها ويستهلكونها بضراوة . . إلخ » .

ويقول المطران في مكان آخر من الرسالة :

« لسوف يرى جلالتكم رأي العين أن من يحكمون هنا يستحقون انتزاع السلطة منهم لكي ترتاح البلاد من آلامها . أما إذا طال الأمر فـإن داءها سيُصبح عضالاً . لسـوف يرى جـلالتكم رأي العين أن الشيـاطين هي التي تحكم هنـا وليس المسيحيين . إن الخـارجين عـلى قانون الله والملك هم الذين يمثلونكم هنا . والحق أقول يا قيصرنا أن أكبر عائق للسلام مع الهنود وأمام معرفتهم ديننا هو وحشية المسيحيين وقسوتهم على هؤلاء المسالمين . لقد صار الهنود يجمحون ويجنـون كلما ذكـرت أمـامهم كلمــة « المسيحي » ، وصــاروا ينــادوننــا بــاسم « Yares » وهي كلمة من لغتهم تعني « الشياطين » . ولا شك في أنهم عـلى حق لأن الأعمال التي يـرتكبهـا المسيحيـون ليست بـأعـمال مسيحيين ولا أفعال بشر وهبهم الله العقل . إنها فعل الشياطين . وقد

أدى ذلـك إلى أن الهنود الـذين أوذوا في قلوبهم وأجسادهم كـل هذا الأذى ظنوا أن سبب ذلك هو الدين المسيحي والإلّه المسيحي والملك المسيحي . وقد صار إقناعهم بغير ذلك كمن يريد أن يفرغ البحر من مائه ، بل صارت منـاسبة يسخـرون فيها من المسيـح ومن دينه . إن الهنود المحاربين حين يرون ما حل بالهنود المستسلمين يفضلون الإنتحار على الموت بين يدي الإسبان . وإنني أعرف ذلك عن تجربة يا قيصرنا الغالب أبداً » .

ويضيف مطران « سانتا مرتا » في مكانٍ آخر قائلاً :

« إن لجـلالتكم هنا خـدماً أكـثر مما تتخيلون وتتصورون ، فليس هنـاك جندي واحـد من الموجـودين هنا لا يقـول علناً إنـه إنما ينهب ويخـرب من أجل خـدمة جـلالتكم . وحين يسرق الـذهب يزعـم أن بعضاً منه لجلالتكم . لكل ذلك يا صاحب الجلالة يا قيصرنا المسيحي لا بـد من إفهام هؤلاء الخـدم ببعض العقـوبـات الصـارمـة أنكم لا تكونون مخدومين إذا لم يخدم الله » .

إن رسالة مطران سانتا مرتا تظهر بوضوح ما يجري في هذه المناطق التعيسة وضد هذه الشعوب البريئة . إن المطران يطلق اسم المحاربين على أولئك الهنود الذين فروا إلى الغابات هرباً من المذابح التي نظمها الإسبان . ويطلق اسم المسالمين على أولئك الـذين نجوا من المـذابح الكثيرة واستسلموا لرق الإسبان الجائر الظالم . حتى هؤلاء يموتون قتلاً بعد حياة العبودية . لقد استنزف الإسبان هنود هذه المنطقة بتحميلهم الأثقال على كواهلهم في الجبال الوعرة. وحين يسقط هندي خائراً من شدة الإرهاق يكسر الإسباني أسنانه بمقبض سيفه ، فينهض المسكـين

وهـو يتلوى ألمـاً ، ويصيـح : اقتلني حـالاً لأنتهي من عـذابكم أيهـا الشياطين . يقول ذلك ، ويضع يديه على قلبه ، ويلفظ الروح .

وآه لو كنت أستطيع أن أعرض عليكم معشـار معشار المصـائب والكوارث التي واجهها هؤلاء الأبـرياء عـلى يد الإسبـان المسيحيين . ولعل الله هو الذي يُفهم من سلمت عقولهم ومن يستطيعون الإنقاذ .

عن ساحل اللؤلؤ ،
وباريا ، وجزيرة ترينيداد

ارتكب الإسبان فتكاً هائلاً ودماراً عظيماً في المنطقة الممتدة بين ساحل « باريا » وخليج « فنزويللا » ، أي على مائتي فرسخ تقريباً . وقد نهبوا هذه المنطقة وباعوا سكانها عبيداً للخارج . كانوا يأخذونهم بالحيلة ، فقد كان الهنود يستقبلون الإسبان بترحاب كأنهم من أهلهم أو أولادهم ، ويعطونهم ما يستطيعون ويخدمونهم على أفضل وجه . والحق أنه ليصعب عليَّ أن أروي ما ارتكبه الإسبان على هذا الساحل من ظلم وإذلال وجور ، وذلك منذ عام ١٥١٠ حتى اليوم . إنني سوف أتكلم عن مثلين أو ثلاثة أمثلة ، مما ارتكبه الإسبان هناك من فظاعات تستحق عذاب جهنم وبئس المصير .

إن جزيرة ترينيداد[1] أكبر من صقلية . وهي جزيرة كانت سعيدة

---

(١) سرعان ما كان الإسبان يطلقون على هذه المناطق أسماء قديسيهم أو عقائدهم المسيحية . وترينيداد تعني « الثالوث المقدس » . أما الاسم الأصلي للجزيرة فقد ابتلعه الثالوث المقدس .

هانئة مطمئنة . إنها تلتقي باليابسة عند منطقة باريا . وقد كان أهلها من أسعد سكان بلاد الهند . في ١٥١٦ توجه إليها لص إسباني بصحبة ستين لصاً من الشاطرين ، وقالوا للهنود إنهم جاؤوا إلى الجزيرة ليسكنوها ويعيشوا مع أهلها . واستقبلهم الهنود كعادتهم كأنهم أولادهم من لحمهم ودمهم ، وخدموهم بكثيرٍ من العطف والسعادة . كانوا يأتونهم يومياً بطعام أكثر مما يحتاجون إليه . كان ذلك موقف الهنود في العالم الجديد [القارة الأميركية] فقد كانوا يعطونهم بسخاء وكرم . وقد شيد الهنود لهؤلاء منزلاً كبيراً من خشب زعموا أنهم يريدون أن يسكنوا فيه . وكانت تلك وسيلتهم إلى ما كانوا يريدون ، وإلى ما فعلوه بعد ذلك . فما أن وضع الهنود القش فوق العوارض وغطوها جيداً (لكي لا يرى من في الداخل من في الخارج) هرع الإسبان وطلبوا إلى كثيرٍ من الهنود أن يدخلوا بحجة الإسراع في إنهاء المنزل . ثم توزع الإسبان داخل المنزل وخارجه . وكانوا مسلحين مستعدين للإنقضاض على كل هندي تسول له نفسه بالخروج . أما الذين كانوا في الداخل من الإسبان فقد سلوا سيوفهم وهددوا الهنود العراة بقتلهم إذا تحركوا ثم أوثقوهم . وحين حاول بعضهم الهرب لاقى مصرعه وتمزق إرباً إرباً . ثم هرع بعض هنود القرية لما علموا بالأمر والتجأوا إلى منزل كبير في القرية ، حاملين معهم أقواسهم ونبالهم للدفاع عن أنفسهم. لكن الإسبان طوقوا المنزل وأشعلوا فيه النار . كان فيه مائة أو مائتان ، وقد أحرقهم الإسبان أحياء . أما عن الهنود الموثقين في المنزل فقد ساقوهم إلى سفينتهم وأبحروا بهم إلى سان خوان حيث باعوا نصفهم عبيداً ، ثم إلى الجزيرة الإسبانية حيث باعوا النصف الثاني ، وكان عددهم قرابة المائتين . وحين لمت القبطان في

جزيرة خوان على ما فعله أجابني : يا سيدي ، إن من أرسلني إلى هناك أمروني أن آتي بالهنود سلماً أو حرباً . واعترف لي هذا الطاغية أنه لم يعرف في حياته أمه أو أباه ، وإن الهنود في جزيرة ترينيداد كانوا بمثابة الأم والأب . لقد اعترف بذلك ، ولن يغفر الله له خطاياه . هكذا استعبد الإسبان الكثير من هنود هذه الجزيرة .

ومرة ، قررنا نحن آباء « رهبانية القديس دومينيك » أن نبشر في هذه الشعوب المفتقرة إلى نور العقيدة المسيحية . وتوجهنا إليها لننقذ أرواحها . وأرسلنا واحداً من رهبانيتنا ليكتشف البلد قبلنا ويلتقي بسكانها ، ويبحث عن أماكن مناسبة لتشييد الأديرة فيها . وكان رجل لاهوت شهيراً ويصحبه راهب آخر . وحين وصولهما استقبلهما الهنود كأنهما ملائكة من السماء وأصغوا إلى تبشيرهما بكثيرٍ من الود واليقظة . كانا يبشران بالرموز لأن الهنود لا يفهمون لغتنا . وبعد أن غادر المركب الذي حمل الراهبين إلى الجزيرة أرسى مركب آخر وترجل منه إسبان مستعدون للقتل والذبح . ثم استدعوا شريف الجزيرة الهندي الذي كان قد اعتنق المسيحية وصار اسمه « دون ألفونسو » بفضل الراهبين . ولا بد من القول أن الهنود يصرون على تبديل أسمائهم إلى أسماء مسيحية عندما يعتنقون الدين المسيحي .

وإذن ، فبمجرد أن وصل هؤلاء الأسبان استدعوا دون ألفونسو وقالوا له إنهم يريدون أن يحتفلوا به هو وامرأته وحاشيته على مركبهم . وصعد الشريف [دون ألفونسو] مع امرأته وحاشيته (كانوا ٢٧ هندياً) إلى المركب الذي سرعان ما أبحر بهم إلى الجزيرة الإسبانية حيث باع الإسبان الشريف الهندي ومن معه عبيداً . ولما علم أهالي

« ترينيداد » بما جرى لـزعيمهم جن جنونهم وأرادوا قتـل الراهبـين . وخاف الراهبان على حياتهما ، وخافا أن لا تسمع هذه الشعوب بكلام الله أبداً إذا قتلا ، فحاولا تهدئة خواطر الهنود وتسكين روعهم . وقالا لهم إنهما سيكتبان إلى الجزيرة الإسبانية ليعود زعيمهم وحاشيته . وقد كتبا أول مرة وثاني مرة وثالث مرة ، واحتجا ، وطالبا عبثاً ، فقد كان الإسبان قد وزعوا الهنود بينهم عبيداً . ولم يكن من الهنود بعـد طول الانتظار إلا أن قتلوا الراهبين ظناً منهم بـأنهما مسؤولان عما جـرى . هكذا انتقم الهنود من الاسبان ، عن حق بقتل الراهبين . لم يدرك الهنود ، وما زالوا غير مدركين ما بين رجال الدين وبين الإسبان الطغاة اللصوص من فرق . لقد مات هذان الراهبان بأيـدي الهنود وراحـوا ضحية الظلم الإسباني الفظ . إنهما شهيدان حقيقيان ، ولا شك أنهما الآن إلى جوار ربهما في جنته السعيدة. لقـد جاءا إلى هـذه البلاد من أجل التبشير ونشر الإيمان المقدس ، ومن أجل تخليص هذه الأرواح . ولقـد تجشما المشقـات وتحملا العـذاب والآلام وأخطار المـوت بـاسم المسيح .

ومـرة أخرى قتـل الهنود راهبـين آخـرين من رهبـانيـة القـديس « دومينيك » وراهباً من رهبانية « الفرنسيسكان » . وكنتُ شاهداً على موتهم . ونجوت بأعجوبة . إن هنالك الكثير مما يجب روايته ومما يروّع الأفئدة . لقد شهدت أخطاراً وأهوالاً . وإنها لروايـة طويلة لا أريـد الحديث عنها إلا في الوقت المناسب . إن يوم القيامة هو اليـوم الذي سيثأر فيه الله من هذه الشناعات المزريات في بلاد الهنـد . تلك التي ارتكبها من يحمل لواء المسيحية .

وكان في هذه المنـاطق شعب آخر يعيش عنـد خليج « كـوديرا »

وكان زعيمه يسمى « هيغوروتو » وهو اسمه الشخصي واللقب الـذي يُطلق على كل زعيم أو شريف هناك . كان طيباً ودوداً ، وكان شعبه مثله يتحلى بالفضائل والخصال الحميدة ، إذ كان كل الإسبان الذين يعبرون بهذا الخليج يجدون عندهم حسن الضيافة والرعـاية . ولقـد أنقذ هذا الزعيم كثيراً من الإسبان حين كانوا يتعرضون للمخـاطر . كـانـوا يـأتـون إليـه ، يقتلهم الجـوع فيؤويهم ويـطعمهم ويسقيهم ، ويردهم إلى مآمنهم في جزيرة اللؤلؤ حيث يعيش المسيحيون . وقد كان يستطيع أن يقتلهم دون أن يعلم أحد بذلك ، ولكنه لم يفعل . بل ان الإسبان أطلقوا على بلاد « هيغوروتو » اسم « نـزل الراحـة العام » . غير أن طاغية إسبانياً قرر الهجوم على هـذه البلاد الآمنـة المطمئنـة ، فتوجه إليها على متن سفينة ، ثم دعا عدداً كبيراً من الهنود أن يصعدوا إليها . وصدق الهنود أنه لن يؤذيهم ، لكنه رحل بهم إلى جزيرة سان خوان وباعهم عبيـداً . وكنت قد وصلت آنـذاك إلى هذه الجـزيرة ، ورأيت ما ارتكبه هذا الظالم بحق هذا الشعب الوادع . حتى الإسبان الطغاة لاموه على ما فعل لأنهم فقدوا ملاذهم و« نزل الراحة » .

وإنني أكرر وأقول إنني لا أروي إلا يسيراً من الآثام والشنـاعات التي ارتكبها الإسبان في هذه الأراضي .

لقد ساق الطغاة الظالمون إلى الجزيرة الإسبانية وإلى جزيرة سـان خوان أكثر من مليوني هندي بريء أعزل ، التقطوهم على طول ذلك الساحل الذي كان يعج بالبشر . ولقد مات المليونان كلهم بالتعذيب الذي لاقوه أثناء عملهم في المناجم . وإنني لا أذكر هنا العدد الهائـل من الأهالي الذين قتلهم المسيحيون على الساحل . إنه لمشهد تنفطر له القلوب حـين ترى هـذا السـاحـل الذي كـان سعيداً وقـد تحـول إلى

سباسب مقفرة .

إنني أعلن حقيقة لا ريب فيها حين أقول أن كل سفينة اسبانية كانت تنقل هنوداً لبيعهم ترمي في البحر بثلث حمولتها على أقل تقدير ، قبل أن تصل إلى مرساها . كان الإسبان يرمون إلى البحر كل هندي ضعيف أو مريض . وكان الهنود يحتضرون في السفن لأن الإسبان كانوا يرفضون إطعامهم والإنفاق عليهم . أما الطعام فكانوا لا يحملون منه إلا ما يكفيهم هم فقط . ولذلك لم يكن يصل من الهنود إلى المرافىء إلا القلة القليلة التي استطاعت أن تصبر على الجوع والعطش . وقد أخبرني أحد هؤلاء الطغاة أنه أبحر مرة من « لوكايس » إلى هذه الجزيرة دون أن يستعين بخريطة أو بوصلة . كان يقتفي جثث الهنود التي أُلقيت بكثرة على طول الطريق بين « لوكايس » وبين الجزيرة الإسبانية ، أي على مسافة ٧٠ فرسخاً .

وقد رأيت ، مرة ، ما يفطر القلوب ويفتت الأكباد . رأيت السفينة حين وصلت إلى الجزيرة ونزل منها الهنود الذين سيُباعون . كان الأطفال والنساء والشيوخ والرجال عراة يتساقطون أرضاً وينهضون ويسقطون من شدة الجوع . بعد ذلك يأتي الإسباني فيُعاملهم كما تعامل النعاج : يفصل الآباء عن الأطفال ، والزوجات عن أزواجهن ، ويصنع منهم قطعاناً ، كل قطيع من عشر أنفس أو عشرين نفساً . بعد ذلك تجري القرعة لتوزيع هؤلاء المساكين على الإسبان من أصحاب السفن والطغاة واللصوص . وحين يرى أحد الطغاة عجوزاً هندياً بين قطيعه يصرخ غاضباً : هذا العجوز ليذهب إلى جهنم . لماذا تعطوني هذا العجوز ؟ ألأدفنه ؟ ألأطببه ؟ هيا اقتلوه . هكذا عامل الإسبان الهنود ، وهكذا نفذوا وصايا الرب وحب

القريب الذي أوصت به المسيحية ودعا إليه الأنبياء .

ولدى الإسبان نوعٌ آخر من الطغيان لا يوجد له مثيل في هذا القرن ، ولا يمكن أن يجاريه أي عمل جهنمي ، بما في ذلك تسخير الهنود لاستخراج الذهب من المناجم على ما في هذا العمل من قسوة ووحشية . إنني سأتحدث عن تسخير الهنود في صيد اللؤلؤ . كان الإسبان يمسكون بشعور الهنود ويلقون بهم في البحر من الفجر إلى النجر ، ويجبرونهم على أن يبقوا معظم هذا الوقت تحت المياه يصطادون المحار . ثم يملأون به شباكهم الصغيرة ويصعدون . يصعدون ليتنفسوا فقط . ويوجد إلى جانبهم عادة جلاد إسباني ينتظر الغواص الهندي على متن زورقه ، حتى إذا وجد أن الهندي قد أمضى فوق الماء فترة أطول مما يلزم لتنفسه يمسكه مجدداً من شعره ويرميه إلى الأعماق .

وفي الليل كانوا يربطونهم إلى الأرض ويوثقونهم بها حتى لا يهربوا . وكان الهندي المسكين في معظم الأحيان يغوص لصيد اللؤلؤ فيصطاده سمك القرش والحيتان الكبيرة ، وهي حيوانات بحرية فتاكة كانت تلتهمهم . فليحكم المرء بنفسه إذا كان الإسبان الذين يكرهون الهنود على صيد اللؤلؤ يتبعون تعاليم الله ؟ كانوا يجبرون الهنود على الموت جسداً وروحاً ، ذلك لأن هؤلاء المساكين يلفظون الروح بلا إيمان ولا قربان مقدس . كل ذلك يقوم به الإسبان جشعاً ، فهم يقتلون الهنود بأعداد كبيرة جداً ، وخلال فترة قصيرة . فهل يعقل أن يعيش الإنسان فترة طويلة تحت الماء بدون تنفس ؟ إن برودة المياه تتغلغل في أجسادهم .

أما من لم يمت تحت المياه فإنه يموت فوق البر بعد يـوم أو يومـين وهو يبصق الدم بغزارة ، أو يُصاب بالإسهال الحاد لكثرة ما ابتلع من تلك المياه الباردة. إن شعورهم الفاحمة السوداء تبدو كأنها محـروقة أو أشبه بوبر ذئاب البحر . بل ينبت في ظهورهم ما يشبه ملح البارود ، وتتحـول هذه الكـائنات البشريـة المسكينـة إلى وحـوش ذات طبيعـة بشرية ، ويخيل إليك وأنت تنظر إليها أنها كائنات من عالمٍ آخر . لقد فتك الإسبان بهذا الاستعباد الجهنمي بكل هنود جزر « لوكايس » حين ابتدأوا بتجارة اللؤلؤ . كانوا يبيعون الهندي بخمسين أو مائة قشتاليـة في الأسـواق العامـة . والمعروف أن هنـود هـذه الجـزر مـاهـرون في السباحة . أما حين مـات كثير منهم بسبب صيـد اللؤلؤ فقد استـورد الإسبان المجرمون أعداداً كبيرة من هنود الجزر المجاورة لتلك الغاية .

عن نهر يايا باري

يجري في منطقة « باري » نهر يُسمى بـ« يايا باري » ، وذلك على مدى مائتي فرسخ داخل اليابسة . وفي عام ١٥٢٩ جاء طاغية جبار إلى منابع هذا النهر يصحبه أكثر من ٤٠٠ رجل ، وارتكب جرائم عديدة ، فأحرق كثيراً من البشر أحياء ، وذبح بشفرة السيف عدداً كبيراً من الأبرياء الذين كانوا يعيشون في تلك المنطقة لا يؤذون أحداً ولا يكنون شراً لأحد . لقد أرهب الأهالي وهجّرهم من بلادهم التي لم يتركها إلا قاعاً صفصفاً . ثم توفاه الله ، وتفرقت حملته . لكن طغاة أقسى منه قلباً جاءوا بعده فبزوه جبروتاً وآثاماً . وما زالوا هنالك إلى الآن يعيشون فساداً وإجراماً ، ويرسلون إلى جهنم أنفساً فداها المسيح بدمه .

حول المناطق البرية والساحلية المسماة بفلوريدا

في عام ١٥١٠ أو ١٥١١ وصل ثلاثة من الطغاة إلى هذه المناطق فارتكبوا فظاعات الآخرين ، لعلهم ينالون ما لا يستحقونه ، متوسلين إلى ذلك إهراق الدم والفتك بالناس . وقد مات ثلاثتهم شر ميتة ، وانهارت عليهم البيوت التي شيدوها فوق دماء البشر . كنت أعرفهم جميعاً . ولقد محيت ذكراهم من على وجه الأرض ، ويا ليتهم لم يعيشوا أبداً ، فقد تركوا وراءهم مناطق ترتجف خوفاً إذا ذُكرت أسماؤهم ، ويعمها القرف والهول مما سفكوه من دماء . إن أرواحهم قبضت قبل أن يذبحوا المزيد من الهنود ، لكن طاغية رابعاً وصل إلى فلوريدا في عام ١٥٣٨ مع عدد من رجاله . ولم يسمع أحد بشيء من أخباره منذ أكثر من ثلاث سنوات ، فهو لا يظهر للعيان ، لكنني متأكد من أنه ارتكب المذابح لحظة وصوله ، ثم اختفى خوفاً من الانتقام . أما إذا كان حياً فإنني أشفق من الخوف على أهالي تلك البلاد لأنه من أكثر الطغاة خبثاً وقسوة . ولقد قام رجاله بمذابح في عدد من بلاد الهند وفتكوا وأحرقوا . ولقد علمت بعد كتابة ما كتبت

أنه توفي منذ فترة ، وعـرفت مدى الجـرائم العجيبة التي اقـترفها هـو وصحبه الذين لا يملكون قلوباً . وهذا يؤكد ما قلته من قبل ، فكلما طـال زمن الفتح الإسبـاني زادت وحشيـة الإسبان وقسـوة قلوبهم ، فبطشوا أكثر ونحروا المزيد .

وآه . . إنني مللت من سرد كل هذا الركام من الجـرائم ، ومن وصف هذه السلسلة الطويلة من المذابح ، لأنني لا أتحدث عن أفعال بشر ، بل عن أفعال بهائم تعيش في الغابات .

لقد ارتكب هذا الطاغية المذابح في فلوريدا من أجل التخـويف والإرهاب ، وتفنن في التعذيب ، فكـان يربط الهنـود وهم يعملون ، عشرات عشرات ، بحبل واحد . فإذا سقط أحدهم من الإرهاق قطع رأسه وترك الجسد على الأرض ، لكي لا يضطر إلى فك الحبل .

وعلمت أن الإسبان دخلوا قرية فاستقبلهم أهلها بالترحاب ، ثم أطعموهم ، وخصصوا لهم ٦٠٠ هندي لخدمتهم وحمل أثقالهم . غير أن الإسبان ، ولم يكادوا يرتاحـون من وعثاء السفـر ، بدأوا بتقـطيع الرؤوس . ولما رأوا بعض الهنود حذراً منهم ذبحوهم بالجملة ، رجالاً ونساء وأطفالاً . وأحضر الطاغية (كما قيل لي) مائتي هندي ، وراح يتسلى بهم : منهم من جدع أنفـه ، ومنهم من قطع شفتـه السفلى أو شق فكه . كان يتسلى بتغيير ملامح الوجه . . ثم أرسلهم جميعـاً إلى أهاليهم ، بلا أنوف أو بلا شفاه . أو بلا آذان ، فعادوا يسيلون دماً .
هكذا عـادوا ومعهم « بشـارة » المسيـح ، وبشرى مجيء المبشرين المسيحيين القادمين لنشر الإيمان الكاثوليكي وتعميـد الهنود . وليخمن القـارىء مدى مـا يكنـه الهنـود من حب للمسيحيـين . وأي صـورة

يعرفونها عن ربهم ودينهم .

وآه كم هي كبيرة وعجيبة تلك الجرائم التي ارتكبوها باسم التبشير .

عن « ريو ديلا بلاتا »

ابتداء من ١٥٢٢ اجتاح قادة إسبان منطقة « ريو ديلابلاتا » أربع مرات . وكان في هذه المنطقة ممالك عظيمة وشعوب وهبها الله الحكمة والعقل . إننا نعرف أنهم ارتكبوا فيها المذابح المريعة وأصابوها بالأضرار الفادحة . وبما أنها منطقة نائية معزولة عن باقي بلاد الهند فإننا لا نملك ما نضيفه على ما جرى في المناطق الأخرى . غير أننا لا نشك في أنهم ما زالوا يرتكبون إلى الآن الفظائع التي ارتكبوها في أماكن أخرى فهم ملة واحدة مجرمة عاثت فساداً في كل هذه البلاد . وهم جميعاً يريدون الثراء والسيادة التي لا يستطيعونها إلا بالذبح والقتل والنهب .

ولقد علمت أخيراً أنهم أفنوا مساحات هائلة وممالك شاسعة من هذه المنطقة ، بل ارتكبوا فيها مذابح أفظع مما ارتكبوه في غيرها من البلاد ، نظراً لنأيها وبعدها عن إسبانيا . ولقد عاشوا هناك بلا نظام ولا عدالة . أقول ذلك وأنا أعلم أن كل بلاد الهند لم تعرف نظاماً أو عدالة [مع وصول الإسبان] . وقد علمت أنهم قتلوا خمسة آلاف نفس بحد السيف حين رفض الهنود تقديم الطعام لهم . لا عن بخل ، بل عن خوف، فقد سبق أن ذبحوا عشرات الألوف من

أهـاليهم . ورويت لي حادثـة أخرى عن هنـود استدعـاهم الإسبـان لخدمتهم فلم يسرعوا في المجيىء ، أو أنهم تأخروا في الوصول ، فجاء إليهم الإسبان لقتلهم . واختبأ الهنود وصاروا يصيحون : لقد جئناكم مسالمين لخـدمتكم فها أنتم تقتلوننـا . لتبق دماؤنـا على هـذه الجدران تشهد على موتنا دون سبب ، وتشهد على جوركم . وإنه لكلام يذكر ويستدعي الأسف .

عن ممالك عظيمة ومناطق كبيرة من البيرو

وفي عام ١٥٣١ توجه طاغية آخر ، مع فرقة من جنوده ، إلى ممالك البيرو ، وفعل فيها ما فعله الطغاة الآخرون في الممالك الهندية الباقية . كان من أكثر الطغاة إجراماً . لم يعرف قلبه الإيمان ، وهو منكر لكل قانون ، بشرياً أو دينياً . ولهذا فقد أفرط هذا المجرم في الفظائع والمذابح وفي السلب والنهب ، فدمر القرى وأهان أهلها وقتلهم . وكان سبباً في الكثير مما أصاب هذه المناطق من مظالم . وإنني على يقين من أن أحداً لن يتوصل إلى سرد ما حصل أو توضيحه ، حتى يوم القيامة يوم يُعرف المجرمون بسيماهم . ولقد أردت أن أصف بعض هذه الفظائع ، غير أنني عاجز عن ذلك .

كان هذا المجرم قد سرق الذهب من هذه الشعوب . وفي جزيرة « بوما » القريبة من هذه المقاطعات ، وهي مملكة جميلة سعيدة عامرة بالسكان ، رحب الشعب وملكه بهذا المجرم وجنوده ، واستقبلهم كأنهم ملائكة أُنزلت عليه من السماء . وفي ستة أشهر التهم الإسبان كل ما ادخره الهنود من أغذية . ومع ذلك فقد كشف الهنود عن إهراء القمح حيث يخبئونه إلى أيام القحط والجفاف ، ثم قدموه للإسبان ، وهم ينتحبون : إنه لكم . وشكر لهم الإسبان كرمهم بأن ذبحوا من

استطاعوا منهم واستعبدوا الآخرين ، ثم تركوا المملكة خاوية من أهلها .

ومن هناك انطلق الإسبان إلى منطقة « تومبالا » في اليابسة فقتلوا ودمروا ما استطاعوا . وحين شاهدوا الناس يهربون من فظائعهم ، قالوا إنهم يتمردون على الملك ، وإنهم ليسوا من أتباعه بعد اليوم . وكان هذا الطاغية حاذقاً يطلب المزيد من الذهب والفضة منهم ، وحين لا يبقى لديهم شيء منه يصافحهم ويقول إنهم صاروا أهلاً بأن يكونوا أتباعاً لملك إسباني . ثم يأمر جنوده بأن ينفخوا في البوق . هكذا يصدق الهنود أنهم دفعوا الثمن اللازم لكي يصيروا في رعاية ملك إسبانيا وحمايته .

بعد بضعة أيام جاء أمبراطور هذه الممالك كلها واسمه « أتاهوالبا » ، ومعه حاشيته ، وهم بشر ليس عليهم إلا ما يستر عوراتهم ، ويحملون أسلحة تضحك الأطفال . ولم يكن هذا الأمبراطور يعرف بعد ، كيف تقطع السيوف ، أو كيف تجرح الرماح ، أو كيف تعدو الخيول . ولم يكن يعلم من هم الإسبان الذين يهجمون على الشياطين ، إذا عرفوا أن لديها ذهباً ، وينهبونه منها . وصل هذا الأمبراطور الساذج إلى حيث يوجد الإسبان ، وقال ببراءة : أين هم الإسبان ؟ ليتفضلو ويمثلوا أمامي . إنني لن أتحرك من هنا إلى أن يعوضني الاسبان عما قتلوه من أتباعي ، وما أحرقوه من قراي ، وما نهبوه من ثروات شعبي .

وجاءه الإسبان ، لا ليمثلوا أمامه ، بل ليعطوه درساً في وحشيتهم . وراحوا يقتلون ما استطاعوا من جماعته . ثم قبضوا

عليه ، وسجنوه ، وهو ما يزال على محفته الملكية . بعد ذلك طالبوه بفدية فوعدهم بما يعادل أربعة ملايين قشتالية [القشتالية عملة ذهبية تعادل ٤,٦ غرامات] لكنه أعطاهم ما يعادل ١٥ مليوناً ، فوعدوه بإطلاق سراحه ، ولم يفوا بوعدهم طبعاً . ومتى صدق الإسبان بوعودهم للهنود ؟ .

وأعلن الإسبان أنهم سيحرقونه حياً ، لكن أصواتاً اسبانية نادت بخنقه ثم حرقه . وحين علم الأمبراطور بمصيره قال للإسبان : ولماذا تحرقونني ؟ ماذا فعلت لكم ؟ ألم تعدونني بأنكم سوف تطلقون سراحي إذا ما أعطيتكم ذهباً ؟ ألم أعطكم أكثر مما وعدتكم ؟ لماذا لا ترسلونني إلى ملككم في إسبانيا ؟

لكن أسئلته لم تلاقِ إلا جواباً واحداً : الخنق والحرق .

ولسوف أذكر هنا بعض الحوادث التي ارتكبها أدعياء المسيحية والتي نفذوها من أجل إبادة هذه الشعوب . وأنقل هنا رواية أحد الرهبان من رهبانية القديس فرانسوا . وهي رواية موقعة باسمه ومكتوبة بخط يده . وقد أرسل بنسخ منها إلى ممالك قشتالة . وهذه مقاطع من النسخة التي أملكها وقد جاء فيها :

« أنا الراهب الأخ « ماركوس دونيزا » من رهبانية القديس « فرانسوا » ، كنت مع أول رهبان دخلوا إلى هذه المناطق مع المسيحيين الأوائل . وإنني أعلن بأنني أشهد شهادة حقيقية على بعض ما رأيته بعيني في هذه البلاد ، خاصة مشاهد الغزو والطريقة التي عامل بها الإسبان سكان البلاد .

« إنني شاهدت بعيني ، وفهمت من تجربتي أن هنود « البيرو » من أكثر الهنود تسامحاً . ولقد تحالفوا في البداية مع المسيحيين وصادقوهم . ورأيتهم يعطون المسيحيين كثيراً من الذهب والفضة والأحجار الكريمة . كانوا يعطونهم كل ما يملكونه ، ويخدمونهم على أفضل وجه . لم يكن الهنود في يومٍ من الأيام محاربين أو مستعدين للحرب بل كانوا مسالمين آمنين إلى أن استفزهم الإسبان بمعاملتهم السيئة وفظاظتهم .

« وأود أن أصرح بما كنت شاهداً عليه : حين دخل الإسبان إلى أراضي هؤلاء الهنود (في البيرو) أعطاهم الزعيم « أتاهوالبا » من الذهب ما قيمته مليونا قشتالية وكل ما يملكه من الأراضي ، وبدون مقاومة . عندها ، وبدون سبب أحرق الإسبان الزعيم « أتاهوالبا » ، ثم أحرقوا قبطانه العام حياً ، واسمه « كوشيلماكا » . وكان « كوشيلماكا » قد جاء ليرحب بالحاكم [الإسباني] يصحبه زعماء آخرون . وبعد أيام أحرق الإسبان « شامبا » وهو زعيم مرموق آخر من مقاطعة « كويتو » . علماً بأنه لم يؤذيهم ولم يذنب ذنباً . كذلك أحرقوا ، ظلماً وتعسفاً ، « شابرا » زعيم الكناريين ، وأحرقوا أقدام أحد زعماء « كويتو » الكبار ، وعذبوه طويلاً ليعترف لهم بمكان الذهب . وكان المسكين يجهل كل شيء عن هذا الأمر . وفي « كويتو » نفسها أحرق الإسبان « كوزوبانغا » حاكم كل مناطق « كويتو » لأنه رفض تسليم كل ما لديه من ذهب ، كما أحرقوا معه كثيراً من شيوخ القبائل . ولقد قيل لي بعد ذلك أن الإسبان قد خططوا أن لا يبقوا زعيماً هندياً على قيد الحياة .

« وإنني أصرح أيضاً بأن الإسبان قد جمعوا عدداً كبيراً من الهنود

وسجنوهم داخل منازل ثلاثة كبيرة حشروهم فيها ثم أحرقوهم دون أي سبب . ولقد استطاع أحد الرهبان أن « يستخرج » صبياً من النار ، لكن إسبانياً آخر هجم عليه وسحب الطفل من يديه ورماه في اللهب حيث صار رماداً مع الآخرين . وفي ذلك النهار توفي هذا الإسباني فجأة وهو على الطريق ، ورفضت أن أدفنه . إني أصرح أيضاً بأنني شاهدت الاسبان يقطعون أيدي الهنود والهنديات ، من غير سبب ، ويجدعون أنوفهم ويقطعون آذانهم . ورأيت الاسبان يقومون بصيد نادر ، إذ كانت كلابهم السلوقية تطارد الهنود وتلتهمهم ، أو أن الإسبان أنفسهم يرمون بالهندي إلى كلابهم السلوقية لتأكله . كما رأيت الإسبان ينتزعون الرضيع من بين يدي أمه ، ويلوحون به في الهواء ، ثم يقذفونه إلى أبعد ما يستطيعون . رأيت تعسفاً شديداً وجوراً كثيراً تهلع له القلوب . ولم أنجح في منعهم عن حرق الهنود . وإنني أعلن أمام الله وضميري أن هنود البيرو لم يتمردوا على الإسبان إلا لأن هؤلاء عذبوهم أشد العذاب .

« وإنني أصرح أيضاً ، وفقاً لحكايات الهنود ، أن الذهب الدفين أكثر من الذهب المرئي ، وأن الهنود لم يريدوا الكشف عنه بسبب ما تعرضوا له من ظلم . لقد ابتذل الإسبان الله بما ارتكبوه من فظائع ، وأهانوا [الملكة] جلالتها بما عملوا من فساد في هذه الأرض التي تستطيع أن تطعم كل قشتالة . . . » .

هذا هو كلام الراهب بالحرف . وقد وقع عليه مطران مكسيكو وشهد على صحة ما صرح به الأخ « ماركوس » . وما قاله هذا الراهب حصل فعلاً بعد تسعة أشهر أو عشرة أشهر من « الفتح » حين كان الإسبان قلة . أما حين سمع الإسبان بأخبار الذهب فأسرع أربعة

آلاف أو خمسة آلاف منهم إلى بلاد الهند واجتاحوا منطقة تتجاوز ٧٠٠ فرسخ ، وراحوا يسرقون ويقتلون . ومنذ تلك الفترة حتى اليـوم أباد الإسبان بشراً أكثر مما ذكرت بألف مرة . لقد أُريق دم جزء كبـير من الإنسانية دون خوف من الله أو الملك . وقتل الإسبان في هذه الممالك (في البيرو) أكثر من أربعة ملايين نسمة ، ومـا زالوا . وقبـل بضعة أيام عذبوا بعيدان القصب المبري ملكة عـظيمة ثم قتلوهـا . وكانت هذه الملكة زوجة الملك « الينغ » الذي يحكم كل هذه المناطق وحين هرب الملك من وجه الاسبان عذبوا زوجته وقتلوها .

فهرس